تفسير سورة يس

من تفسير الأمثل لسماحة آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

دار المعارف الإسلامية الثقافية

تفسير سورة يس

تفسير

سورة يس

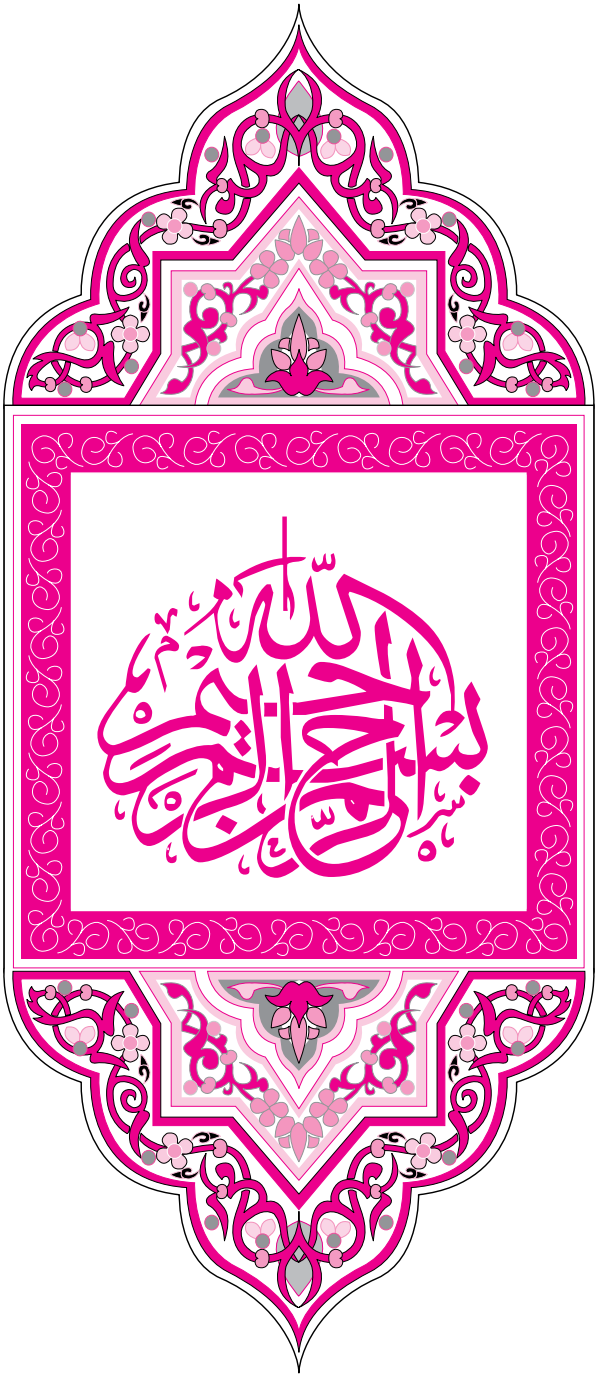
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ يٰسٓ

ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

يٰسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ
حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ
إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ
﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ
إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا
يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا
بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم
مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ
ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ
﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ
مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن

شرح المفردات

صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ: طريق لا اعوجاج فيه.

غَٰفِلُونَ: الغفلة عدم تذكّر الشيء.

حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ: ثبت ووجب.

أَغۡلَٰلًا: جمع غلّ، ما تُشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب.

ٱلۡأَذۡقَانِ: جمع ذقن، ملتقى الفكّين الأسفلين.

مُّقۡمَحُونَ: المُقمَح:

بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ: قدّامهم، أمامهم.

سَدّٗا: حاجزاً

فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ: الغشاء الغطاء.

وَسَوَآءٌ: يتساوى.

ٱلذِّكۡرَ: القرآن.

وَءَاثَٰرَهُمۡۚ: ما تركوه خلفهم.

أَحۡصَيۡنَٰهُ: عددناه وضبطناه.

إِمَامٖ مُّبِينٖ: الإمام هو المقدّم الذي يُقتدى به، والمُبين هو الواضح، وهو اللوح المحفوظ.

فَعَزَّزۡنَا: فقوّينا وأيّدنا.

ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ: التبليغ وهو إيصال المطلوب بأحسن ما يكون، والمُبين الظاهر الواضح.

تَطَيَّرۡنَا: تشاءمنا.

لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ: الرجم هو الرمي بالحجارة.

وَلَيَمَسَّنَّكُم: ليصيبنّكم.

مُّسۡرِفُونَ: الإسراف تجاوز الحدّ.

أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ: أبعد أطرافها.

يَسۡعَىٰ: السعي الإسراع في المشي.

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعني.

لَّا تُغۡنِ: لا تدفع ولا تمنع.

يُنقِذُونِ: أنقذه إذا نجّاه وخلّصه من ورطته.

ٱلۡمُكۡرَمِينَ: المكرَّم المعظَّم بما يناسب شأنه.

صَيۡحَةٗ: صرخة، وهي نوع من العذاب.

خَٰمِدُونَ: ميّتون، وخمدت النار إذا سكنت.

يَٰحَسۡرَةً: الحسرة الغمّ على ما فات، والندم عليه.

يَسۡتَهۡزِءُونَ: الاستهزاء السخرية.

ٱلۡقُرُونِ: الأمم.

7

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا
مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا
فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا
صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم
مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ
أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ
ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ

سورة يس

شرح المفردات

مُحْضَرُونَ: الإحضار الإشخاص للعذاب.

وَءَايَةٌ: علامة.

ٱلْعُيُونِ: ينابيع الماء المتفجّرة.

ٱلْأَزْوَاجَ: الأنواع والأصناف.

نَسْلَخُ: ننزع.

تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا: تسير لمكان أو زمان سكونها وعدم حركتها.

تَقْدِيرُ: التقدير من الله أن يجعل الشيء على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما تقتضي الحكمة.

قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ: منازل القمر ما يقطعه القمر في اليوم والليلة، وقدّرناه أي صيّرناه.

كَٱلْعُرْجُونِ: العرجون عود عذق النخل الذي فيه عناقيد الرطب، وإذا أتى عليه سنة تقوّس ودقّ.

يَنۢبَغِى: لا يصلح.

فَلَكِ: الفلك هنا هو مجرى الكواكب.

ذُرِّيَّتَهُمْ: الذريّة الأولاد والأحفاد.

ٱلْفُلْكِ: السُّفن.

الْمَشْحُونِ: المملوء.

فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ: فلا مغيث لهم.

يُنقَذُونَ: أنقذه إذا خلّصه.

وَمَتَٰعًا: المتاع كلّ ما يُنتفع به من عروض الدنيا.

مُعْرِضِينَ: أعرض عن الشيء ولّى وانصرف.

مَا يَنظُرُونَ: ما ينتظِرون.

صَيْحَةً: صوتاً قويّاً.

تَأْخُذُهُمْ: تُهلِكهم.

يَخِصِّمُونَ: يختصمون، يتنازعون.

تَوْصِيَةً: وصيّة، وهي أن يعهد لغيره بأمر بعد وفاته.

ٱلصُّورِ: القرن يُنفخ فيه، فيخرج منه صوت قويّ.

ٱلْأَجْدَاثِ: القبور.

يَنسِلُونَ:

يَٰوَيْلَنَا: يا هلاكنا.

مَّرْقَدِنَا: مكان نومنا، وهنا يُراد بها القبور.

مُحْضَرُونَ: الإحضار الإشخاص للعذاب.

فَٰكِهُونَ: فرحون مسرورون.

ظِلَٰلٍ: جمع ظلّ، وهو الفيء.

ٱلْأَرَآئِكِ: جمع أريكة، السرير.

مُتَّكِـُٔونَ: الاتّكاء الجلوس وإسناد الظهر أو الجنب إلى شيء.

فَٰكِهَةٌ: ثمار.

مَّا يَدَّعُونَ: ما يطلبون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَّحِيمِ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ
أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ
نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَ لَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ
فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ
لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾
أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا
فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن
يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سورة يس

شرح المفردات[1]

وَٱمْتَٰزُواْ: التميّز التفريق بين أمرين.

أَعْهَدْ: أُوصي.

جِبِلًّا: خلقاً.

ٱصْلَوْهَا: قاسوا حرّها والزموها.

نَخْتِمُ: نطبع، وختم الإناء سدّه.

لَطَمَسْنَا: الطمس هو محو الشيء بالكلّيّة.

فَٱسْتَبَقُواْ: من الاستباق؛ أي بادروا وانطلقوا.

لَمَسَخْنَٰهُمْ: المسخ التحويل من صورة إلى صورة منكرة.

مَكَانَتِهِمْ: مكانهم.

مُضِيًّا: مضى يمضي إذا ذهب.

نُعَمِّرْهُ: التعمير إطالة العمر حتّى يبلغ سنّ الشيخوخة.

نُنَكِّسْهُ: تنكيس الشيء قلبه بجعل أسفله أعلاه.

ٱلْخَلْقِ: المخلوقات من الناس وغيره.

ذِكْرٌ: عِظة.

وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ: يَثْبُت.

أَنْعَٰمًا: الأنعام تطلق على الإبل والبقر والغنم.

وَذَلَّلْنَٰهَا: سخرّناها.

رَكُوبُهُمْ: مركوبهم الذي عليه يركبون.

مَنَٰفِعُ: فوائد.

وَمَشَارِبُ: مشروب لهم.

جُندٌ مُّحْضَرُونَ: عساكر جاهزة لخدمتهم.

خَصِيمٌ: مجادل شديد الجدال.

وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ: غفل عن أصل خلقه وتكوينه.

رَمِيمٌ: بالية أشدّ البلى.

أَنشَأَهَآ: الإنشاء هو الخلق ابتداءً.

تُوقِدُونَ: الإيقاد إشعال النار.

مَلَكُوتُ: مبالغة في الملك - الملك التامّ.[1]

---

(1) أوضح البيان في تفسير القرآن، السيّد عبّاس علي الموسويّ.

تفسير السورة

محتوى السورة

هذه السورة من السور المكّية؛ لذا فهي من حيث النظرة الإجمالية لها نفس المحتوى العام للسور المكّية، فهي تتحدّث عن التوحيد والمعاد والوحي والقرآن والإنذار والبشارة، ويلاحظ في هذه السورة أربعة أقسام رئيسيّة:

1. تتحدّث السورة أوّلاً عن رسالة النّبي الأكرم ﷺ والقرآن المجيد، والهدف من نزول ذلك الكتاب السماوي العظيم، وعن المؤمنين به، وتستمر بذلك حتّى آخر الآية الحادية عشرة.

2. قسم آخر من هذه السورة يتحدّث عن رسالة ثلاثة من أنبياء الله، وكيف كانت دعوتهم للتوحيد، وجهادهم المتواصل المرير ضدّ الشرك، وهذا في الحقيقة نوع من التسلية والمواساة لرسول الإسلام ﷺ وتوضيح الطريق أمامه لتبليغ رسالته الكبرى.

3. قسم آخر منها، والذي يبدأ من الآية 33 وحتّى الآية 44، مملوء بالنكات التوحيدية الملفتة للنظر، وهو عرض معبّر عن الآيات والدلائل المشيرة إلى عظمة الله في عالم الوجود، كذلك فإنّ أواخر السورة أيضاً تعود إلى نفس هذا البحث التوحيدي والآيات الإلهية.

4. قسم مهمّ آخر من هذه السورة، يتحدّث حول المواضيع المرتبطة بالمعاد والأدلّة المختلفة عليه، وكيفية الحشر والنشر، والسؤال والجواب في يوم القيامة، ونهاية الدنيا، ثمّ الجنّة والنار، وهذا القسم يتضمّن مطالب مهمّة ودقيقة جدّاً.

وخلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محرّكة ومحفّزة لأجل تنبيه وإنذار الغافلين والجهّال، لها الأثر القوي في القلوب والنفوس.

الخلاصة: إنّ الإنسان يواجه في هذه السورة بمشاهد مختلفة من الخلق والقيامة، الحياة والموت، الإنذار والبشارة، بحيث تشكّل بمجموعها نسخة الشفاء ومجموعة موقظة من الغفلة.

فضيلة سورة «يس»

سورة يس -بشهادة الأحاديث المتعدّدة التي وردت بهذا الخصوص- من أهمّ السور القرآنية، إلى حدّ أنّ الأحاديث لقّبتها بـ «**قلب القرآن**».

ففي حديث عن رسول الإسلام ﷺ نقرأ: «**إنّ لكلّ شيء قلباً، وقلب القرآن يس**»[1].

وفي حديث عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ لكلّ شيء قلباً وقلب القرآن يس، فمن قرأ يس في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين والمرزوقين حتّى يمسي، ومن قرأها في ليلة قبل أن ينام وكلّ به ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم ومن كلّ آفة...**»[2].

كذلك نقرأ عن الرسول ﷺ أيضاً: «**سورة تدعى في التوراة المعمة! قيل: وما المعمة؟ قال: تعمّ صاحبها خير الدنيا والآخرة**»[3].

وهناك روايات أخرى عديدة بهذا الخصوص، وردت في كتب الفريقين أعرضنا عن ذكرها حذراً من الإطالة.

لذا يجب الإقرار بأنّه ربّما لم تنل سورة من سور القرآن الأخرى كلّ هذه الفضائل الخاصّة بسورة يس.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذه الفضيلة والثواب لا ينالهما من يكتفي بقراءة الألفاظ -فقط- مشيحاً عن مفاهيم السورة، بل إنّ عظمة فضيلة هذه السورة إنّما هي لعظمة محتواها..

(1) مجمع البيان، الطبرسي، ج4، ص413.

(2) مجمع البيان، الطبرسي الطبرسي، ج4، ص413.

(3) المصدر نفسه.

محتوى يوقظ من الغفلة ويضخّ في النفس الإيمان، ويولد روح المسؤولية ويدعو إلى التقوى، بحيث إنّ الإنسان إذا تفكّر في هذه الآية وجعل ذلك التفكّر يلقي بظلاله على أعماله، فإنّه يفوز بخير الدنيا والآخرة.

فمثلاً، الآية (60) من هذه السورة تتحدّث حول عهد الله في التحذير من عبادة الشيطان: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1].

ومن الواضح أنّه حينما ينشغل الإنسان بهذا العهد الإلهي -تماماً مثلما ورد في الأحاديث التي ذكرناها- سيكون في أمان من أي شيطان رجيم، ولكن لو قرئت هذه الآية بلا رويّة، وفي مقام العمل يكون من الأصدقاء المخلصين والأوفياء للشيطان، فإنّه لن ينال ذلك الفخر الذي ذكرناه، وهذا يصدق على آيات هذه السورة آية آية.

(1) سورة يس، الآية 60.

36

سُورَةُ يسٓ

الآيات 1 إلى 10

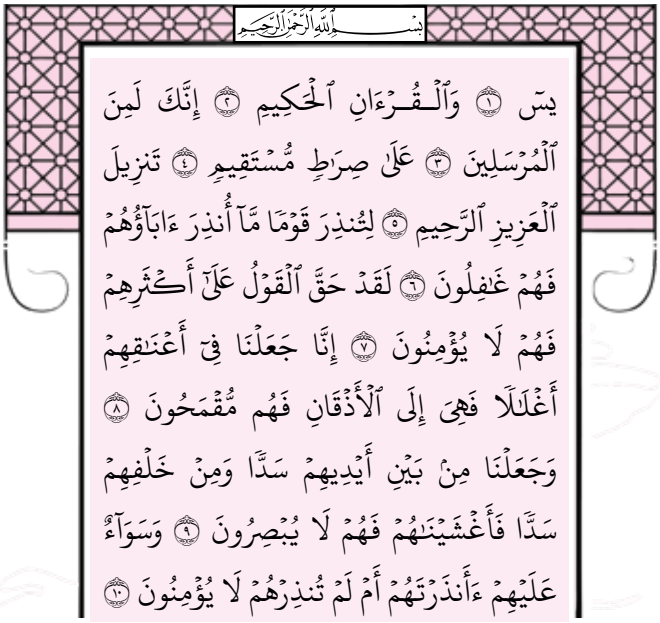

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ
فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ
فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ
أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨
وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ
سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩ وَسَوَآءٌ
عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠

التّفسير

هذه السورة تبدأ -كما هو الحال في ثمان وعشرين سورة أخرى- بحروف مقطّعة وهي «**ياء**» و«**سين**».

وقد فصّلنا الحديث فيما يخصّ الحروف المقطّعة في بداية سورة (البقرة) و(آل عمران) و(الأعراف)، ولكن فيما يخصّ سورة (يس) فتوجد تفسيرات أخرى أيضاً لهذه الحروف المقطّعة.

من جملتها أنّ هذه الكلمة (يس) تتكوّن من «**ياء**» حرف نداء و«**سين**»؛ أي شخص الرّسول الأكرم ﷺ. وعليه، فيكون المعنى أنّه خطاب للرسول ﷺ لتوضيح قضايا لاحقة.

وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ هذه الكلمة تمثّل أحد أسماء الرّسول الأكرم ﷺ[1].

ومنها أنّ المخاطب هنا هو الإنسان و«**سين**» إشارة له، ولكن هذا الاحتمال لا يحقّق الانسجام بين هذه الآية والآيات اللاحقة، لأنّ هذه الآيات تتحدّث إلى الرّسول ﷺ وحده.

لذا نقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**يس اسم رسول الله ﷺ والدليل على ذلك قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[2].

بعد هذه الحروف المقطّعة -وكما هو الحال في أغلب السور التي تبتدئ بالحروف المقطّعة- يأتي الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسماً بالقرآن، إذ يقول: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾. الملفت للنظر أنّه وصف ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هنا بـ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، في حين أنّ الحكمة عادة صفة للعاقل، كأنّه سبحانه يريد طرح القرآن على أنّه موجود حي وعاقل ومرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمة أمام البشر، ويؤدّي إلى الصراط المستقيم الذي تشير إليه الآيات التالية.

بديهي أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأنّ يقسم، ولكن الأقسام القرآنية تتضمّن -دائماً- فائدتين أساسيتين: الأولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، والثانية بيان عظمة الشيء الذي يقسم به الله تعالى، إذ إنّ القسم لا يكون عادة بأشياء ليست ذات قيمة.

الآية التي بعدها توضّح الأمر الذي من آجله أقسم الله تعالى في مقدّمة السورة الكريمة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

بعد ذلك تضيف الآية ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[4].

التأكيد على ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ كصفة لله سبحانه وتعالى، لأجل بيان قدرته سبحانه وتعالى في قبال كتاب كبير كهذا، كتاب يقف معجزة شامخة على مرّ العصور والقرون، ولن تستطيع

(1) نور الثقلين، الحويزي، ج4، ص374 و375.

(2) نور الثقلين، الحويزي، ج4، ص375.

(3) اختلف المفسّرون في تركيب جملة عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بعضهم قال «إنّها جار ومجرور» متعلّقان بـ «المرسلين»، بحيث يكون المعنى «رسالتك على صراط مستقيم» وبعضهم قال: «إنّها خبر بعد خبر» والمعنى «إنّك مستقر على صراط مستقيم»، وبعضهم الآخر اعتبروها (حال) منصوبة والمعنى «إنّك من المرسلين وحالك على صراط مستقيم» (من الطبيعي أن ليس هناك تفاوت كثير في المعنى).

(4) «تنزيل» مفعول منصوب لفعل مقدّر والتقدير «نزل تنزيل العزيز الرحيم»، كذلك فقد وردت احتمالات أخرى لإعراب هذه الجملة.

أيّة قدرة مهما كانت أن تمحو أثره العظيم من صفحة القلوب.

والتأكيد على «**رحيميته**» لأجل بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ رحمته أوجبت أن تقيّض للبشر نعمة عظيمة كهذه.

بعض المفسّرين قالوا بأنّ هاتين الصفتين ذكرتا للإشارة إلى نوعين من ردود الفعل المحتملة من قبل الناس إزاء نزول ذلك الكتاب السماوي وإرسال النّبي الأكرم ﷺ، فلو أنكروا وكذّبوا، فإنّ الله سبحانه وتعالى يهدّدهم بعزّته، ولو دخلوا من باب التسليم والقبول، فإنّ الله يبشّرهم برحمته الخاصّة.

وعليه، فإنّ عزّته ورحمته إحداهما مظهر للإنذار والأخرى للبشارة، وباقترانهما جعل هذا الكتاب السماوي العظيم في متناول البشرية.

هنا يطرح سؤال: هل يمكن إثبات حقّانية الرّسول أو الكتاب السماوي، بواسطة قسم أو تأكيد؟

الجواب تستبطنه الآيات المذكورة، لأنّها من جانب تصف القرآن بالحكيم، مشيرة إلى أنّ حكمته ليست مخفية عن أحد، وذلك دليل على حقّانيته.

ومن جانب آخر فإنّ وصف الرّسول الأكرم ﷺ بأنّه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، بمعنى أنّ محتوى دعوته يتّضح من سبيله القويم، وماضيه أيضاً دليل على أنّه لم يسلك في حياته سوى الطريق المستقيم.

وقد أشرنا في البحوث التي أوردناها حول أدلّة حقّانية الرسل، إلى أنّ أحد أهمّ الطرق لإدراك حقّانية الرسل، هو التحقّق والاطلاع على محتوى دعواتهم بشكل دقيق، الأمر الذي يؤكّد دائما أنّها متوافقة ومنسجمة مع الفطرة والعقل والوجدان، وقابلة للإدراك والتعقّل البشري، إضافة إلى أنّ تأريخ حياة الرّسول ﷺ يدلّل على أنّه رجل أمانة وصدق، وليس رجل كذب وتزوير.. هذه الأمور قرائن حيّة على كونه رسول الله، والآيات أعلاه في الحقيقة تشير إلى كلا المطلبين. وعليه، فإنّ القسم والدعوى أعلاه لم يكونا بلا سبب أبداً.

ناهيك عن أنّه من حيث أدب المناظرة، فإنّه لأجل النفوذ في قلوب المنكرين والمعاندين

يجب أن تكون العبارات في طرحها أكثر إحكاماً وحسماً ومصحوبة بتأكيد أقوى، كيما تستطيع التأثير في هؤلاء.

يبقى سؤال: وهو لماذا كان المخاطب في هذه الجملة شخص الرّسول الأكرم ﷺ، وليس المشركين أو عموم الناس؟

الجواب هو التأكيد على أنّك يا أيّها النّبي على الحقّ وعلى الصراط المستقيم، سواء استجاب هؤلاء أو لم يستجيبوا، لذا فإنّ عليك الاجتهاد في تبليغ رسالتك العظيمة، ولا تعر المخالفين أدنى اهتمام.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلي لنزول القرآن كما يلي ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1]؛ أي إنّه لم يأتِ نذير لآبائهم.

من المسلّم أنّ المقصود بهؤلاء القوم هم المشركون في مكّة، وإذا قيل: إنّه لم تخلُ أمّة من منذر، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله، علاوة على أنّه تعالى يقول في الآية (24) من سورة فاطر: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2]؟

فنقول: إنّ المقصود من الآية -مورد البحث- هو المنذر الظاهر والنّبي العظيم الذي ملأ صيته الآفاق، وإلّا فإنّ الأرض لم تخل يوماً من حجّة لله على عباده، وإذا نظرنا إلى الفترة من عصر المسيح عليه السلام إلى قيام الرّسول الأعظم ﷺ نجدها لم تخل من الحجّة الإلهية، بل إنّها فترة من قيام أولي العزم،

يقول أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الخصوص: «**إنّ الله بعث محمّداً ﷺ وليس أحد من**

(1) أعطى المفسّرون احتمالات مختلفة حول كون «ما» نافية أو غير ذلك، أغلبهم قالوا بأنّها «نافية»، وقد اعتمدنا ذلك نحن في تفسيرنا، أوّلاً: لأنّ جملة «فهم غافلون» دليل على ذلك المعنى، فعدم وجود المنذر سبب للغفلة.
الآية الثالثة من سورة السجدة -أيضاً- شاهد على ذلك، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.
وقال بعضهم بأنّ «ما» هنا موصولة، بحيث يكون معنى الجملة «لتنذر قوما بالذي انذر آباؤهم».
وبعض احتملوا أنّ «ما» مصدرية. وعليه، يكون معنى الجملة «لتنذر قوما بنفس الإنذار الذي كان لآبائهم»، ولكن يبدو أنّ كلا الاحتمالين ضعيف.

(2) سورة فاطر، الآية 24.

العرب يقرأ كتاباً ولا يدّعي نبوّة!»[1].

وعلى كلّ حال، فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، وإيقاظ النائمين، وتذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، والذنوب والمعاصي التي ارتكبوها، والشرك وأنواع المفاسد التي تلوّثوا بها. نعم، فالقرآن أساس العلم واليقظة، وكتاب تطهير القلب والروح.

ثمّ يتنبّأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفّار والمشركين فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

احتمل المفسّرون هنا العديد من الاحتمالات في المراد من ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هنا.

الظاهر أنّه ذلك الوعيد الإلهي لكل أتباع الشيطان بالعذاب في جهنّم، فمثله ما ورد في الآية (13) من سورة السجدة: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]. كذلك في الآية (71) من سورة الزمر نقرأ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

على كلّ حال، فإنّ ذلك يخصّ أولئك الذين قطعوا كلّ ارتباط لهم بالله سبحانه وتعالى، وأغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، وأوصلوا عنادهم وتكبّرهم وحماقتهم إلى الحدّ الأعلى. نعم، فهم لن يؤمنوا أبداً، وليس لديهم أيّ طريق للعودة، لأنّهم قد دمّروا كلّ الجسور خلفهم.

في الحقيقة، إنّ الإنسان القابل للإصلاح والهداية هو ذلك الّذي لم يلوّث فطرته التوحيدية تماماً بأعماله القبيحة وأخلاقه المنحرفة، وإلّا فإنّ الظلمة المطلقة ستتغلّب على قلبه وتغلق عليه كلّ منافذ الأمل.

فاتّضح أنّ المقصود هم تلك الأكثرية من الرؤوس المشركة الكافرة الّتي لم تؤمن أبداً، وكذلك كان، فقد قتلوا في حروبهم ضدّ الإسلام وهم على حال الشرك وعبادة الأوثان، وما

(1) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، الخطبة 33 و104.
(2) سورة السجدة، الآية 13.
(3) سورة الزمر، الآية 71.

تبقى منهم ظلّ على ضلاله إلى آخر الأمر.

وإلّا فإنّ أكثر مشركي العرب أسلموا بعد فتح مكّة بمفاد قوله تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾.[1] ويشهد بذلك ما ورد في الآيات التالية التي تتحدّث عن وجود سدّ أمام وخلف هؤلاء، وكونهم لا يبصرون، وأنّه لا ينفع معهم الإنذار أو عدمه[2].

الآية التي بعدها تواصل وصف تلك الفئة المعاندة، فتقول: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾؛ أي مرفوعي الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«**أغلال**» جمع «**غل**»: من مادّة «**غلل**» ويعني تدرع الشيء وتوسطه، ومنه الغلل (على وزن عمل) للماء الجاري بين الشجر. و«**الغل**» الحلقة حول العنق أو اليدين وتربط بعد ذلك بسلسلة، وبما أنّ العنق أو اليدين تقع في ما بينها فقد استعملت هذه المفردة في هذا المورد، وحينا تكون الأغلال في العنق مربوطة بسلسلة مستقلّة عمّا تربط به أغلال الأيدي، وحينا تكون جميعها مربوطة بسلسلة واحدة فيكون الشخص بذلك تحت ضغط شديد وفي محدودية وعذاب شديدَين.

وإذا قيل لحالة العطش الشديد أو الحسرة والغضب «**غلة**»؛ فإنّ ذلك لنفوذ تلك الحالة في داخل قلب وجسم الإنسان، وأساساً فإنّ مادّة «**غل**» -على وزن جدّ- بمعنى الدخول أو الإدخال، لذا قيل عن حاصل الكسب أو الزراعة وأمثالها «**غلة**»[3].

وقد تكون حلقة «**الغل**» حول الرقبة عريضة أحياناً بحيث تضغط على الذقن وترفع الرأس إلى الأعلى، من هنا فإنّ المقيّد يتحمّل عذاباً فوق العذاب الذي يتحمّله من ذلك القيد بأنّه لا يستطيع مشاهدة أطرافه.

ويا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبدة الأوثان المشركين بحال هذا الإنسان، فقد طوّقوا أنفسهم بطوق «**التقليد الأعمى**»، وربطوا ذلك بسلسلة «**العادات**

(1) سورة النصر، الآية 2.

(2) بناء على ما عرضناه يتضح بأنّ الضمير في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ يعود على قادة القوم وليس على القوم، وشاهد ذلك الآيات التالية لتلك الآية.

(3) مفردات الراغب، وقطر المحيط للبستاني، ومجمع البحرين للطريحي، مادّة غل.

والتقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض والاتّساع أنّها أبقت رؤوسهم تنظر إلى الأعلى وحرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، وبذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدرة والفعّالية والحركة، ولا قدرة الإبصار[1].

على أيّة حال، فإنّ الآية الذي أعلاه، تعتبر شرحاً لحال تلك الفئة الكافرة في الدنيا وحالهم في عالم الآخرة الذي هو تجسيد لمسائل هذا العالم، وليس من الغريب استخدام صيغة الماضي في تصوير حال الآخرة هنا، فإنّ الكثير من الآيات القرآنية الكريمة تتكلّم بصيغة الماضي حينما تتعرّض إلى الحوادث المسلّم بها في المستقبل للدلالة على مضارع متحقّق الوقوع، وبذلك يمكن أن تكون إشارة إلى كلا المعنيين حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة.

جمع من المفسّرين ذكروا في أسباب نزول هذه الآية والآية التالية لها أنّهما نزلتا في أبي جهل أو رجل من مخزوم أو قريش، الذين صمّموا مرارا على قتل الرّسول ﷺ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى منعهم من ذلك بطريقة إعجازية، فكلّما أرادوا إنزال ضربة بالنّبي عميت عيونهم عن الإبصار أو أنّهم سلبوا القدرة على التحرّك تماماً[2].

ولكنّ سبب النّزول ذلك لا يمنع من عمومية مفهوم الآية وسعة معناها، بحيث يشمل جميع أئمّة الكفر والمعاندين، وفي الضمن فهي تعتبر تأييداً لما قلناه في تفسير فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ في أنّ المقصود بهم هم أئمّة الكفر والنفاق وليس أكثرية المشركين.

الآية التالية تتناول وصفاً آخر لحالة تلك المجموعة، وتمثيلاً ناطقاً عن عوامل وأسباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وحوصروا بين هذين السدّين وأمسوا لا يملكون طريقاً لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، آنئذ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(1) على ما أوردناه أصبح واضحاً أنّ الضمير «هي» في جملة فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ يعود على «الأغلال» بحيث إنّها رفعت أذقانهم إلى الأعلى، وجملة «فهم مقمحون» تفريع على ذلك. وما احتمله بعضهم من أنّ «هي» تعود على «الأيدي» التي لم يرد ذكرها في الآية، يبدو بعيداً جدّاً.

(2) تفسير الآلوسي، ج22، ص199.

ويا له من تشبيه رائع! فهم من جهة كالأسرى في الأغلال والسلاسل، ومن جهة أخرى فإنّ حلقة الغلّ عريضة بحيث إنّها ترفع رؤوسهم إلى السماء، وتمنعهم من أن يبصروا شيئاً ممّا حولهم، ومن جهة ثالثة فهم محاصرون بين سدود من أمامهم وخلفهم وممنوعون من سلوك طريقهم إلى الأمام أو إلى الخلف. ومن جهة رابعة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إذ فقدت عيونهم كلّ قدرة على الإبصار.

تأمّلوا مليّاً ماذا ينتظر ممّن هو على تلك الحال؟ ما هو مقدار إدراكه للحقائق؟

ماذا يمكنه أن يبصر؟ وكيف يمكنه أن ينقل خطاه؟ فكذلك حال المستكبرين المعاندين العمي الصمّ في قبال الحقائق! لهذا فإنّه تعالى يقول في آخر آية من هذه المجموعة: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فمهما كان حديثك نافذاً في القلوب ومهما كان أثر الوحي السماوي، فإنّه لن يؤثّر ما لم يجد الأرضية المناسبة، فلو سطعت الشمس آلاف السنين على أرض سبخة، ونزلت عليها مياه الأمطار المباركة، وهبّت عليها نسائم الربيع على الدوام، فليس لها أن تنبت سوى الشوك والتبن، لأنّ قابلية القابل شرط مع فاعلية الفاعل.

بحوث

1. فقدان وسائل المعرفة

يحتاج الإنسان للتعرّف على العالم الخارجي إلى الاستفادة من وسائل وأدوات تسمّى «**وسائل المعرفة**». قسم منها «**باطنية**»، والقسم الآخر «**ظاهرية**».

العقل والوجدان والفطرة من وسائل المعرفة الباطنية، والحواسّ الظاهرية كالأبصار والأسماع وأمثالها وسائل المعرفة الظاهرية.

وقد أعطى الله هذه الوسائل القدرة على الاشتداد شيئاً فشيئاً إذا استفيد منها على وجه صحيح حتّى تتمكّن من تشخيص الحقائق بصورة أفضل وأدق.

أمّا إذا استغلّت بطريقة خاطئة، أو لم يتمّ الاستفادة منها أصلاً، فإنّها تضطرب بشكل كلّي وتعكس الحقائق بشكل مقلوب، تماما كالمرآة الصافية إذا غطّاها غبار غليظ أو أنّها

تخرّشت بحيث أضحت لا تعكس الصورة عليها، أو أنّها تعكس ما لا ينطبق على الواقع.

هذه الأعمال المغلوطة والمواقف المنحرفة هي التي تصادر وسائل المعرفة من الإنسان، ولهذا السبب فإنّ المقصّر الأصلي هو الإنسان، وهو الذي جنى على نفسه.

الآيات أعلاه تشبيه معبّر عن هذه المسألة المهمّة والمصيرية، فهي تشبه المستكبرين والمتعصّبين والأنانيين والمنافقين بالمقيدين بالأغلال والسلاسل من جهة، سلاسل الكبر والهوس والغرور والتقليد الأعمى الذي وضعوه على أعناقهم وأياديهم. وبأولئك المحاصرين بين سدّين منيعين لا يمكن عبورهما.

ومن جهة أخرى، فإنّ أعينهم مغلقة ولا تبصر.

الغلّ والسلاسل وحدها تكفي لمنعهم من الحركة، والسدّان العظيمان أيضاً وحدهما كافيان لمنعهم من الفعّالية، انعدام البصر وحده أيضاً عامل مستقل.

هذان السدّان عاليان ومتقاربان إلى حدّ أنّهما وحدهما كافيان لسلبهم القدرة على الإبصار، كما أنّهما كافيان لسلبهم قدرة الحركة. وقد كرّرنا القول بأنّ الإنسان تبقى هدايته ممكنة ما لم يصل إلى تلك المرحلة، أمّا حينما يبلغ تلك المرحلة، فلو اجتمع جميع الأنبياء والأولياء عليهم السلام أيضاً وقرءوا له جميع الكتب السماوية، فلن يؤثّر ذلك فيه.

وذلك ما تمّ التأكيد عليه، سواء في آيات القرآن أو الروايات، وهو أنّ الإنسان إذا زلّت قدمه أو ارتكب ذنباً فعليه أو يتوب فوراً ويتوجّه إلى الله، وأن يبتعد عن التسويف والتأخير، والإصرار والتكرار، ومن أجل أن لا يصل إلى تلك المرحلة عليه أن ينظف صدأ القلب، ويدمّر السدود والموانع الصغيرة قبل أن تتحوّل إلى سدود كبيرة وعظيمة، ويحتفظ بمساره وتكامله وينفض الغبار عن عينيه لكي يتمكّن من الإبصار.

2. السدود من الأمام والخلف

طرح بعض المفسّرين هذا السؤال، وهو أنّ المانع الأساسي من استمرار الحركة هو السدّ الذي يكون أمام الإنسان، فما معنى السدّ من الخلف؟

وأجاب بعضهم قائلاً: إنّ الإنسان له هداية فطرية ووجدانية -وهداية نظرية

استدلالية- فكأنّه تعالى يقول: ﴿جَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾؛ أي: حرمناهم من سلوك سبيل الهداية النظرية وجعلنا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أي: منعناهم من العودة إلى الهداية الفطرية[1].

وقال بعضهم الآخر: إنّ السدّ من بين أيديهم إشارة إلى الموانع التي تمنعهم من الوصول إلى الآخرة وسلوك طريق السعادة الخالدة، وأمّا السدّ من خلفهم فهو الذي يصدّهم عن تحصيل السعادة الدنيوية[2].

كذلك يحتمل التّفسير التالي أيضاً، وهو إنّ السالك إذا انسدّ الطريق الذي قدّامه فقد فاته المقصد ولكنّه يرجع ليبحث عن طريق آخر يوصله إلى المقصد، فإذا أغلق الطريق من خلفه ومن قدّامه فسوف يكون محروماً من الوصول إلى المقصد حتماً.

وفي الثنايا يتّضح الجواب أيضاً على السؤال التالي: وهو لماذا لم يذكر السدود عن اليمين والشمال؟ ذلك لأنّ الإنسان لا يصل إلى المقصد الذي أمامه بالسير يميناً أو شمالاً، إضافة إلى أنّ السدّ عادة يبنى في مكان يكون طرفاه الأيمن والأيسر مغلقين، والممر الوحيد هو مكان السدّ الذي ينغلق هو الآخر بوجوده، فيكون الإنسان في حصار كامل عمليّاً.

3. الحرمان من السير الآفاقي والأنفسي

هناك طريقان معروفان لمعرفة الله:

الأوّل التأمّل والتفكّر في آثار الله في جسم الإنسان وروحه، وتلك «**الآيات الأنفسية**». والثاني التأمّل في الآيات الخارجية الموجودة في الأرض والسماء والثوابت والسيارات من الكواكب، والجبال والبحار. وتلك تسمّى «**الآيات الآفاقية**» وقد أشار القرآن إليهما في الآية (53) من سورة فصّلت ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[3].

وحينما يفقد الإنسان قدرة المعرفة، فإنّه يغلق عليه طريق مشاهدة الآيات الأنفسية والآفاقية على حدّ سواء.

(1) تفسير الفخر الرازي الكبير، تفسير الآيات مورد البحث، ج26، ص45.
(2) تفسير القرطبي، تفسير الآيات مورد البحث، ج15، ص10.
(3) سورة فصّلت، الآية 53.

في الآيات الماضية وفي جملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ إشارة إلى المعنى الأوّل، لأنّ الأغلال ترفع رؤوسهم إلى الأعلى بحيث إنّهم لا يملكون القدرة على رؤية أنفسهم، وكذلك فإنّ السدود أمامهم وخلفهم تمنعهم من رؤية ما حولهم، بحيث إنّهم مهما نظروا فلن يبصروا غير السدود، وبذا يحرمون من مشاهدة الآيات الآفاقية.

سُورَةُ يسٓ 36

الآيات 1 إلى 10

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ
بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا
نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ
وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢

التّفسير

من هم الذين يتقبّلون إنذارك؟

كان الحديث في الآيات السابقة عن مجموعة لا تملك أي استعداد لتقبّل الإنذارات الإلهيّة ويتساوى عندهم الإنذار وعدمه، أمّا هذه الآيات فتتحدّث عن فئة أخرى هي على النقيض من تلك الفئة، وذلك لكي يتّضح المطلب بالمقارنة بين الفئتين كما هو أسلوب القرآن.

تقول الآية الأولى من هذه المجموعة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

هنا ينبغي الالتفات إلى أمور:

1. ذكرت في هذه الآية صفتان لمن تؤثّر فيهم مواعظ وإنذارات النّبي ﷺ، وهما: «**اتّباع الذكر**» و «**الخشية من الله في الغيب**». لا شكّ أنّ المقصود من هاتين الصفتين هو ذلك الاستعداد الذاتي وما هو موجود فيهم «**بالقوّة**»؛ أي إنّ الإنذار يؤثّر فقط في أولئك

الذين لهم أسماع واعية وقلوب مهيّأة، فالإنذار يترك فيهم أثرين: الأوّل اتّباع الذكر والقرآن الكريم، والآخر الإحساس بالخوف بين يدي الله والمسؤولية.

وبتعبير آخر: إنّ هاتين الحالتين موجودتان فيهم بالقوّة، وإنّها تظهر فيهم بالفعل بعد الإنذار، وذلك على خلاف الكفّار عمى القلوب الغافلين الذين لا يملكون آذناً صاغية وليسوا أهلاً للخشية من الله أبداً.

هذه الآية كالآية من سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

2. باعتقاد الكثير من المفسّرين أنّ المقصود من «**الذكر**» هو «**القرآن المجيد**».

لأنّ هذه الكلمة جاءت بهذه الصورة مراراً في القرآن الكريم لتعبّر عن هذا المعنى[2]، ولكن لا مانع من أن يكون المقصود من هذه الكلمة أيضاً المعنى اللغوي لها بمعنى مطلق التذكير، بحيث يشمل كلّ الآيات القرآنية وسائر الإنذارات الصادرة عن الأنبياء والقادة الإلهيين.

3. «**الخشية**» كما قلنا سابقاً، بمعنى الخوف الممزوج بالإحساس بعظمة الله تعالى، والتعبير بـ «**الرحمن**» هنا والذي يشير إلى مظهر رحمة الله العامّة يثير معنى جميلاً، وهو أنّه في عين الوقت الذي يستشعر فيه الخوف من عظمة الله، يجب أن يكون هنالك أمل برحمته، لموازنة كفّتي الخوف والرجاء، اللذين هما عاملا الحركة التكاملة المستمرة.

اللافت للنظر أنّه ذكرت كلمة «**الله**» في بعض من الآيات القرآنية في مورد «**الرجاء**» والتي تمثّل مظهر الهيبة والعظمة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[3]، إشارة إلى أنّه يجب أن يكون الرجاء ممزوجاً بالخوف، والخوف ممزوجاً بالرجاء على حد سواء (تأمّل!).

---

(1) سورة البقرة، الآية 2.

(2) انظر: سورة النحل، الآية 44. وسورة فصّلت، الآية 41. وسورة الزخرف، الآية 44. وسورة القمر، الآية 25. وفي نفس الوقت فإنّ لفظة «ذكر» تكرّرت في القرآن كثيراً بمعنى «التذكير المطلق».

(3) سورة الأحزاب، الآية 21.

4. التعبير بـ «**الغيب**» هنا إشارة إلى معرفة الله عن طريق الاستدلال والبرهان، إذ إنّ ذات الله سبحانه وتعالى غيب بالنسبة إلى حواس الإنسان، ويمكن فقط مشاهدة جماله وجلاله سبحانه ببصيرة القلب ومن خلال آثاره تعالى.

كذلك يحتمل أيضاً أنّ «**الغيب**» هنا بمعنى «**الغياب عن عيون الناس**» بمعنى أنّ مقام الخشية والخوف يجب أن لا يتّخذ طابعاً ريائياً، بل إنّ الخشية والخوف يجب أن تكون في السرّ والخفية.

بعضهم فسّر «**الغيب**» أيضاً بـ «**القيامة**»؛ لأنّها من المصاديق الواضحة للأمور المغيبة عن حسّنا، ولكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

5. جملة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ في الحقيقة تكميل للإنذار، إذ إنّ الرّسول ﷺ في البدء ينذر، وحين يتحقّق للإنسان اتّباع الذكر والخشية وتظهر آثارها على قوله وفعله، هنا يبشّره الباري عزّ وجلّ.

بماذا يبشّر؟ أوّلاً يبشّره بشيء قد شغل فكره أكثر من أي موضوع آخر، وهو تلك الزلّات التي ارتكبها، يبشّره بأنّ الله العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، ويبشّره بعدئذ بأجر كريم وثواب جزيل لا يعلم مقداره ونوعه إلّا الله سبحانه.

اللافت للنظر هو تنكير «**المغفرة**» و«**الأجر الكريم**» ونعلم بأنّ استخدام النكرة في مثل هذه المواضع إنّما هو للتدليل على الوفرة والعظم.

6. يرى بعض المفسّرين أنّ (الفاء) في جملة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ للتفريع والتفضيل، إشارة إلى أنّ (اتّباع التذكر والخشية) نتيجتها «**المغفرة**» و«**الأجر الكريم**»، بحيث إنّ الأولى وهي المغفرة تترتّب على الأوّل، والثانية على الثاني.

بعد ذلك، وبما يتناسب مع البحث الذي كان في الآية السابقة حول الأجر والثواب العظيم للمؤمنين والمصدّقين بالإنذارات الإلهية التي جاء بها الأنبياء، تنتقل الآية التالية إلى الإشارة إلى مسألة المعاد والبعث والكتاب والحساب والمجازاة، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

الاستناد إلى لفظة «**نحن**» إشارة إلى القدرة العظيمة التي تعرفونها فينا! وكذلك قطع الطريق أمام البحث والتساؤل في كيف يحيي العظام وهي رميم، ويبعث الروح في الأبدان من جديد؟ وليس نحيي الموتى فقط، بل ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾. وعليه، فإنّ صحيفة الأعمال لن تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا وتحفظها إلى يوم الحساب.

جملة ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ إشارة إلى الأعمال التي قاموا بها ولم يبق لها أثر، أمّا التعبير ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ فإشارة إلى الأعمال التي تبقى بعد الإنسان وتنعكس آثارها على المحيط الخارجي، من أمثال الصدقات الجارية (المباني والأوقاف والمراكز التي تبقى بعد الإنسان وينتفع منها الناس).

كذلك يحتمل أيضاً أن يكون المعنى هو أنّ ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ إشارة إلى الأعمال ذات الجنبة الشخصية، و﴿ءَاثَـٰرَهُمْ﴾ إشارة إلى الأعمال التي تصبح سنناً وتوجب الخير والبركات بعد موت الإنسان، أو تؤدّي إلى الشرّ والمعاصي والذنوب. ومفهوم الآية واسع يمكن أن يشمل التّفسيرين.

ثمّ تضيف الآية لزيادة التأكيد ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أغلب المفسّرين اعتبروا أنّ معنى «**إمام مبين**» هنا هو «**اللوح المحفوظ**» ذلك الكتاب الذي أثبتت فيه وحفظت كلّ الأعمال والموجودات والحوادث التي في هذا العالم.

والتعبير بـ «**إمام**» ربّما كان بلحاظ أنّ هذا الكتاب يكون في يوم القيامة قائداً وإماماً لجميع المأمورين بتحقيق الثواب والعقاب، أو لكونه معياراً لتقييم الأعمال الإنسانية ومقدار ثوابها وعقوبتها.

الجدير بالملاحظة أنّ تعبير «**إمام**» ورد في بعض آيات القرآن الكريم للتعبير عن التوراة حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

وإطلاق كلمة «**إمام**» في هذه الآية على التوراة يشير إلى المعارف والأحكام والأوامر الواردة في التوراة، وكذلك للدلائل والإشارات المذكورة بحقّ نبي الإسلام ﷺ، ففي كلّ

هذه الأمور يمكن للتوراة أن تكون قائداً وإماماً للخلق، وبناء على ذلك فإنّ الكلمة المزبورة لها معنى متناسب مع مفهومها الأصلي في كلّ مورد استعمال.

مسألتان

المسألة الأولى: أنواع الكتب التي تثبت بها أعمال الناس

يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة أنّ أعمال الإنسان تدون وتضبط في أكثر من كتاب، حتّى لا يبقى له حجّة أو غدر يوم الحساب.

أوّلها: «**صحيفة الأعمال الشخصية**» التي تحصى جميع أعمال الفرد على مدى عمره ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[1].

هناك حيث تتعالى صرخات المجرمين ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾[2]. وهو الكتاب الذي يأخذه المحسنون في أيمانهم والمسيئون في شمائلهم[3].

ثانياً: «**صحيفة أعمال الأمّة**» والتي تبيّن الخطوط الاجتماعية لحياتها، كما يقول القرآن الكريم: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[4]. وثالثها: «**اللوح المحفوظ**» وهو الكتاب الجامع، ليس لأعمال جميع البشر من الأوّلين والآخرين فقط، بل لجميع الحوادث العالمية، وشاهد آخر على أعمال بني آدم في ذلك المشهد العظيم، وفي الحقيقة فهو إمام لملائكة الحساب وملائكة الثواب والعقاب.

المسألة الثانية: كلّ شيء أحصيناه

ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: «**ائتوا بحطب**»، فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء! قال: «**فليأتِ كلّ إنسان بما قدر عليه**». فجاءوا به حتّى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(1) سورة الإسراء، الآية 14.
(2) سورة الكهف، الآية 49.
(3) سورة الحاقة، الآيتان 19 و25.
(4) سورة الجاثية، الآية 28.

«**هكذا تجمع الذنوب**»، ثمّ قال: «**إيّاكم والمحقّرات من الذنوب! فإنّ لكلّ شيء، طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين**»[1].

هذا الحديث المؤثّر، صورة معبّرة عن أنّ تراكم صغائر الذنوب والمعاصي يمكنه أن يولد ناراً عظيمة اللهب.

في حديث آخر ورد أنّ «**بني سلمة**» كانوا في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ آثاركم تكتب**» -أي خطواتكم التي تخطونها إلى المسجد، وسوف تثابون عليها-، فلم ينتقلوا[2].

اتّضح إذاً أنّ مفهوم الآية واسع وشامل، وله في كلّ من تلك الأمور التي ذكرناها مصداق.

وقد يبدو عدم انسجام ما ذكرنا مع ما ورد من أهل البيت عليهم السلام حول تفسير ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ بأمير المؤمنين علي عليه السلام.

كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «**لمّا أنزلت هذه الآية على رسول الله** ﷺ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، **قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: «لا»**، قالا: فهو الإنجيل؟ قال: «**لا**»، قالا: فهو القرآن؟ قال: «**لا**»، قال: فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «**هو هذا، إنّه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كلّ شيء**»[3].

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أنا -والله- الإمام المبين، أبيّن الحقّ من الباطل، ورثته من رسول الله** ﷺ»[4].

---

(1) نور الثقلين، الحويزي، ج4، ص378، ح25.

(2) تفسير القرطبي، ج15، ص12، نقل هذا الحديث عن أبي سعيد الخدري، كما في صحيح الترمذي وجاء مثله في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري أيضاً، وقد ذكره مفسّرون آخرون كالآلوسي والفخر الرازي والطبرسي والعلّامة الطباطبائي -أيضاً- بتفاوت يسير.

(3) معاني الأخبار، الصدوق، باب معنى الإمام، ص95.

(4) نور الثقلين، الحويزي، ج4، ص379.

فمع أنّ بعض المفسّرين من أمثال «**الآلوسي**»، قد إستاء كثيراً من عملية نقل أمثال هذه الروايات من طرق الشيعة، ونسبهم لذلك إلى عدم المعرفة والاطلاع وعدم التمكّن من التّفسير، إلّا أنّه بقليل من الدقّة يتّضح أنّ أمثال هذه الروايات لا تتنافى مع تفسير «**الإمام المبين**» بـ «**اللوح المحفوظ**». بلحاظ أنّ قلب الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بالمقام الأوّل، ثمّ يليه قلب وليّه، ويعتبران مرآة تعكس ما في اللوح المحفوظ، وإنّ الله سبحانه وتعالى يلهمهم القسم الأعظم ممّا هو موجود في اللوح المحفوظ، وبذا يصبحان نموذجاً من اللوح المحفوظ. وعليه، فإنّ إطلاق «**الإمام المبين**» عليهما ليس بالأمر العجيب، لأنّهما فرع لذلك الأصل، ناهيك عن أنّ وجود الإنسان الكامل -كما نعلم- يعتبر عالماً صغيراً ينطوي على خلاصة العالم الكبير، وطبقاً للشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

أتـــزعـــم أنّـــــك جـــــرم صـغـير وفـيـك انـطـوى الـعـالم الأكــبر؟!

والعجيب أنّ «الآلوسي» لا يستبعد هذا التّفسير مع إنكاره للرّوايات السالفة الذكر. وعلى كلّ حال، فليس من شكّ في كون المقصود من «الإمام المبين» هو «اللوح المحفوظ» فإنّ الروايات السالفة الذكر يمكن تطبيقها عليه (دقّق النظر!).

الآيات 13 إلى 19

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا
ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤
قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن
شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ
إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم
مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩.

التّفسير

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾

لمتابعة البحوث الماضية في الآيات السابقة حول القرآن ونبوّة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والمؤمنين الصادقين، والكفّار المعاندين، تطرح هذه الآيات نموذجاً من موقف الأمم السابقة بهذا الصدد، إنّ هذه الآيات وبعضاً من الآيات التالية لها، والتي تشكّل بمجموعها ثماني عشرة آية، تتحدّث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين الذين بعثوا لهداية المشركين عبّاد الأوثان الذين سمّاهم القرآن الكريم ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وكيف أنّهم نهضوا لمخالفة أولئك الأنبياء، وتكذيبهم، وكانت خاتمتهم أن أخذهم العذاب الأليم، لتكون تنبيهاً لمشركي مكّة من جهة، وتسلية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وفئة المؤمنين

القليلة به في ذلك اليوم. على كلّ حال، فإنّ التأكيد على إيراد هذه القصّة في قلب هذه السورة التي تعتبر هي بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصّة مع ظروف المسلمين في ذلك اليوم.

أوّلا: تقول الآيات الكريمة: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[1].

﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ في الأصل اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وتطلق أحياناً على نفس الناس أيضاً، لذا فمفهومها يتّسع حتّى يشمل المدن والنواحي، وأطلقت في لغة العرب وفي القرآن المجيد مراراً على المدن المهمّة مثل مصر ومكّة وأمثالهما.

لكن ما اسم هذه القرية أو المدينة التي ذكرت في هذه الآية؟

المشهور بين المفسّرين أنّها أنطاكية إحدى مدن بلاد الشام. وهي إحدى المدن الرومية المشهورة قديماً، كما أنّها ضمن منطقة نفوذ تركيا جغرافياً في الحال الحاضر، وسنتعرض إلى تفصيل الحديث عنها في البحوث الآتية إن شاء الله. وعلى كلّ حال، فإنّه يظهر جيداً من آيات هذه السورة الكريمة أنّ أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، وأنّ هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد ونبذ الشرك.

بعد ذلك العرض الإجمالي العام، تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التي جرت فتقول: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾[2].

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟ هناك أخذ وردّ بين المفسّرين، بعضهم قال: إنّ أسماء الاثنين «**شمعون**» و«**يوحنا**» والثالث «**بولس**»، وبعضهم ذكر أسماء أخرى لهم.

وكذلك هناك أخذٌ وردٌّ في أنّهم رسل الله تعالى، أم أنّهم رسل المسيح عليه السلام، ولا منافاة مع قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾؛ إذ إنّ رسل المسيح رسله تعالى أيضاً، مع أنّ ظاهر الآيات

(1) يعتقد بعضهم بأنّ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ مفعول أو للفعل ﴿ٱضۡرِبۡ﴾ و﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثان مقدّم، وبعضهم يقول: إنّها بدل عن ﴿مَّثَلًا﴾، ولكن الظاهر رجاحة الاحتمال الأوّل.

(2) بعض المفسّرين قالوا بأنّ كلمة «إذ» هنا بدل عن «أصحاب القرية»، وذهب آخرون بأنّها متعلّق لفعل محذوف تقديره «اذكر».

أعلاه ينسجم معه التّفسير الأوّل، وإن كان لا فرق بالنسبة إلى النتيجة التي يريد أن يخلص إليها القرآن الكريم.

الآن، لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّين قبال دعوة الرسل، القرآن الكريم يقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهية التي يتذرّع بها الكثير من الكفّار دائما في مواجهة الأنبياء: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

فإذا كان مقرّراً أن يأتي رسول من قبل الله سبحانه، فيجب أن يكون ملكاً مقرّباً وليس إنساناً مثلنا. هذه هي الذريعة التي تذرّعوا بها لتكذيب الرسل وإنكار نزول التشريعات الإلهية، والمحتمل أنّهم يعلمون بأنّ جميع الأنبياء على مدى التاريخ كانوا من نسل آدم، من جملتهم إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي عرف برسالته، ومن المسلّم أنّه كان إنساناً، وناهيك عن أنّه هل يمكن لغير الإنسان أن يدرك حاجات الإنسان ومشكلاته وآلامه؟

وثمّ لماذا أكّدت الآية أيضاً على صفة «**الرحمانية**» لله؟ لعلّ ذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى ضمن نقله هذه الصفة في كلامهم يشعر بأنّ الجواب كامن في كلامهم، إذ إنّ الله الذي شملت رحمته العالم بأسره لا بدّ من أن يبعث الأنبياء والرسل لتربية النفوس والدعوة إلى الرشد والتكامل البشري.

كذلك يحتمل أيضاً أن يكونوا قد أكّدوا على وصف الرحمانية لله ليقولوا بذلك أنّ الله الرحمن العطوف لا يثير المشاكل لعباده بإرسال الرسل والأنبياء، بل إنّه يتركهم وشأنهم! وهذا المنطق الخاوي المتهاوي يتناسب مع مستوى تفكير هذه الفئة الضالّة.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالّين ولم يضعفوا، وفي جوابهم ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ ومسؤوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل واضح وبيّن فحسب.

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

من المسلّم به أنّهم لم يكتفوا بمجرّد الادّعاء، أو القسم بأنّهم من قبل الله، بل إنّ ممّا يستفاد من تعبير ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إجمالاً أنّهم أظهروا دلائل ومعاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، وإلّا فلا مصداقية «**للبلاغ المبين**»، إذ إنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، وذلك لا يمكن تحقّقه إلّا من خلال بعض الدلائل والمعجزات الواضحة.

وقد ورد في بعض الرّوايات أيضاً أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصي علاجهم -بإذن الله- كما كان لعيسى عليه السلام.

ولكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح وتلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم في المواجهة، وانتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد والتعامل الشديد ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾[1].

ويحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم في نفس الفترة التي بعث فيها هؤلاء الأنبياء، وكانت إمّا نتيجة معاصي هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم، فكما نقل بعض المفسّرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لمدّة[2]، ولكنّهم لم يعتبروا من ذلك، بل إنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل. ولم يكتفوا بذلك، بل إنّهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح والعلني، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

هل أنّ «**العذاب الأليم**» هو تأكيد على مسألة الرجم، أو زيادة المجازاة أكثر من الرجم وحده؟

يوجد احتمالان، ولكن يبدو أنّ الاحتمال الثاني هو الأقرب، لأنّ الرجم من أسوأ أنواع العذاب الذي قد ينتهي أحياناً بالموت، ومن الممكن أن ذكر العذاب الأليم إشارة إلى أنّنا

(1) تقدّم الكلام عن «التطيّر» بالتفصيل في تفسير سورة الأعراف، الآية 131، وذيل الآية 47 من سورة النمل.
(2) تفسير القرطبي، ذيل الآيات محلّ البحث.

سنرجمكم إلى حدّ الموت، أو أنّه علاوة على الرجم فإنّنا سنمارس معكم أنواعاً أخرى من التعذيب التي كانت تستعمل قديماً كإدخال الأسياخ المحمّاة في العيون أو صبّ الفلز المذاب في الفمّ وأمثالها.

بعض المفسّرين احتملوا أيضاً أنّ «**الرجم**» هو تعذيب جسماني، أمّا «**العذاب الأليم**» فهو عذاب معنوي روحي[1]. ولكنّ الظاهر أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

أجل، فلأنّ أتباع الباطل وحماة الظلم والفساد لا يملكون منطقاً يمكنهم من المنازلة في الحوار، فإنّهم يستندون دائماً إلى التهديد والضغط والعنف، غافلين عن أنّ سالكي طريق الله لن يستسلموا أمام أمثال هذه التهديدات، بل سيزيدون من استقامتهم على الطريق، فمنذ اليوم الأوّل الذي سلكت فيها أقدامهم طريق الدعوة إلى الله وضعوا أرواحهم على الأكف، واستعدوا لأي نوع من الفداء والتضحية.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالي على هذيان هؤلاء: ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾.

فإذا أصابكم سوء الحظّ وحوادث الشؤم، ورحلت بركات الله عنكم، فإنّ سبب ذلك في أعماق أرواحكم، وفي أفكاركم المنحطّة وأعمالكم القبيحة المشؤومة، وليس في دعوتنا، فها أنتم ملأتم دنياكم بعبادة الأصنام وأتباع الهوى والشهوات، وقطعتم عنكم بركات الله سبحانه وتعالى.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ جملة ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾ جملة مستقلّة وقالوا: إنّ معناها هو «**هل أنّ الأنبياء إذا جاءوا وذكروكم وأنذروكم يكون جزاؤهم تهديدهم بالعذاب والعقوبة وتعتبرون وجودهم شؤماً عليكم؟ وما جلبوا لكم إلّا النور والهداية والخير والبركة. فهل جواب مثل هذه الخدمة هو التهديد والكلام السيء؟!**»[2].

(1) وذلك في حال كون ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ من مادّة «رجم» بمعنى السبّ والاتّهام والقذف.

(2) التقدير هو «أئن ذكّرتم قابلتمونا بهذه الأمور» أو «أئن ذكّرتم علمتم صدق ما قلنا».

وفي الختام قال الرسل لهؤلاء: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

فإنّ مشكلتكم هي الإسراف والتجاوز، فإذا أنكرتم التوحيد وأشركتم فسبب ذلك هو الإسراف وتجاوز الحقّ، وإذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف في المعاصي والتلوّث بالشهوات، وأخيراً ففي قبال الرغبة في العمل الصالح تهدّدون الهادفين إلى الخير بالموت، وهذا أيضاً بسبب التجاوز والإسراف.

وسوف نعود إلى شرح قصّة أولئك القوم، وما جرى لهؤلاء الرسل، بعد تفسير الآيات الباقية التي تكمل القصّة.

الآيات 20 إلى 30

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ
ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ
بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣
إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ
فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي
يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ
٢٧ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ
وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ
مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠

التّفسير

المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكفّ!

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذي وردت الإشارة إليه في هذه القصّة. والإشارة تتعلّق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل وبشجاعتهم في قبال الأكثرية الكافرة المشركة... وكيف وقفوا حتّى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

تشرع هذه الآيات بالقول: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

هذا الرجل الذي يذكر أغلب المفسّرين أنّ اسمه «**حبيب النجّار**»، هو من الأشخاص

الذين قيّض لهم الاستماع إلى هؤلاء الرسل والإيمان وأدركوا بحقّانية دعوتهم ودقّة تعليماتهم، وكان مؤمناً ثابت القدم في إيمانه، وحينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب ويحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع -كما يستشفّ من كلمة يسعى- وأوصل نفسه إلى مركز المدينة ودافع عن الحقّ بما استطاع، بل إنّه لم يدّخر وسعا في ذلك.

التعبير بـ ﴿رَجُلٌ﴾ بصورة النكرة يحتمل أنّه إشارة إلى أنّه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة أو إمكانية متميّزة في المجتمع، وسلك طريقه فرداً وحيداً. وكيف أنّه في نفس الوقت دخل المعركة بين الكفر والإيمان مدافعاً عن الحقّ، لكي يأخذ المؤمنين في عصر الرّسول الأكرم ﷺ درساً بأنّهم وإن كانوا قلّة في عصر صدر الإسلام، إلّا أنّ المسؤولية تبقى على عواتقهم، وأنّ السكوت غير جائز حتّى للفرد الواحد.

التعبير بـ ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ يدلّل على أنّ دعوة هؤلاء الأنبياء وصلت إلى النقاط البعيدة من المدينة، وأثّرت على القلوب المهيّأة للإيمان، ناهيك عن أنّ أطراف المدن عادة تكون مراكز للمستضعفين المستعدين أكثر من غيرهم لقبول الحقّ والتصديق به، على عكس ساكني مراكز المدن الذين يعيشون حياة مرفّهة تجعل من الصعب قبولهم لدعوة الحقّ.

التعبير بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يوضّح حرقة هذا الرجل وتألّمه على أهل مدينته، ودعوته إيّاهم إلى اتّباع الرسل، تلك الدعوة التي لم تكن لتحقّق له أي نفع شخصي.

والآن، لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأيّ منطق وبأيّ دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أوّلا إلى هذه القضيّة ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾. فتلك القضيّة بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّة منفعة ماديّة شخصية، ولا يريدون منكم مالاً ولا جاهاً ولا مقاماً، وحتّى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم.

والخلاصة: لا يريدون منكم أجراً ولا أي شيء آخر.

وهذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنية مراراً فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم

وصفاء قلوبهم، وفي سورة الشعراء وحدها تكرّرت هذه الجملة خمس مرّات: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾[1].

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم وكلامهم انّهم أشخاص مهتدون: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إشارة إلى أنّ عدم الاستجابة لدعوة ما إنّما يكون لأحد سببين: إمّا لأنّ تلك الدعوة باطلة وتؤدّي إلى الضلال والضياع، أو لأنّها حقّ ولكن الدعاة لها يكتسبون من تلك الدعوة منافع شخصية لهم ممّا يؤدّي إلى تشويه النظرة إلى تلك الدعوة، ولكن حينما لا يكون هذا ولا ذاك فما معنى التردّد والتباطؤ عن الاستجابة.

ثمّ ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذي يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾.

فإنّ من هو أهل لأن يعبد هو الخالق والمالك والوهّاب، وليس الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، الفطرة السليمة تقول: يجب أن تعبدوا الخالق لا تلك المخلوقات التافهة.

والتأكيد على ﴿فَطَرَنِي﴾ لعلّه إشارة إلى هذا المعنى أيضاً وهو: إنّني حينما أرجع إلى الفطرة الأصيلة في نفسي ألاحظ بوضوح أنّ هناك صوتاً يدعوني إلى عبادة خالقي، دعوة تنسجم مع العقل، فكيف أغضّ الطرف إذا عن دعوة تؤيّدها فطرتي وعقلي؟! والملفت للنظر أنّه لا يقول: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم؟ بل يقول: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ لكي يكون بشروعه بالحديث عن نفسه أكثر تأثيراً في النفوس وبعد ذلك ينبّه إلى أنّ المرجع والمآل إلى الله سبحانه فيقول: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي لا تتصوّروا أنّ الله له الأثر والفاعلية في حياتكم الدنيا فقط، بل إنّ مصيركم في العالم الآخر إليه أيضاً، فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم في الدارين.

وفي ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام وإثبات العبودية لله بنفي العبودية للأصنام، فيكمل قائلا: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

(1) سورة الشعراء، الآيات 109 - 127 - 145 - 164 - 180.

هنا أيضاً يتحدّث عن نفسه حتّى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة والاستعلاء عليهم، وفي الحقيقة هو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكي تكون شفيعاً لنا أمام الله، فكأنّه يقول: أيّة شفاعة؟ وأي معونة ونجاة تريدون منها؟! فهي بذاتها محتاجة إلى مساعدتكم وحمايتكم، فما ذا يمكنها أن تفعل لكم في الشدائد والملمّات؟

التعبير بـ «**الرحمن**» هنا علاوة على أنّه إشارة إلى سعة رحمة الله وأنّه سبب لكلّ النعم والمواهب، وذلك بحدّ ذاته دليل على توحيد العبادة، فإنّه يوضّح أنّ الله الرحمن لا يريدون أحداً بضرّ، إلّا إذا أوصلت الإنسان مخالفاته إلى أن يخرج من رحمة الله ويلقي بنفسه في وادي غضبه.

ثمّ يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد والتوضيح أكثر: إنّي حين أعبد هذه الأصنام وأجعلها شريكاً لله فإنّي سأكون في ضلال بعيد: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، فأيّ ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنباً إلى جنب خالق السموات والأرض؟! وعندما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من استعراض تلك الاستدلالات والتبليغات المؤثّرة أعلن لجميع الحاضرين ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾.

أمّا من هو المخاطب في هذه الجملة ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ والجملة السابقة لها ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾؟

ظاهر الآيات السابقة يشير إلى أنّهم تلك المجموعة من المشركين وعبدة الأوثان الذي كانوا في تلك المدينة، والتعبير بـ ﴿رَبِّكُمۡ﴾ لا ينافي هذا المعنى أيضاً، إذ إنّ هذا التعبير ورد في الكثير من آيات القرآن الكريم التي تتحدّث عن الكفّار حينما تستعرض الاستدلالات التوحيدية[1].

وجملة ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ لا تنافي ما قلنا، لأنّ هذه الجملة كانت دعوة لهم لاتّباع قوله، بالضبط كما ورد في قصّة مؤمن آل فرعون حيث قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2].

(1) راجع الآيات 3 و32 من سورة يونس - 3 و52 من سورة هود - 24 من سورة النمل - 29 من سورة الكهف وغيرها.
(2) سورة غافر، الآية 38.

ومن هنا يتّضح أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المخاطب في هذه الجملة هم أولئك الرسل، والتعبير بـ ﴿رَبِّكُمْ﴾ وجملة ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ قرينة على ذلك، لا يقوم عليه دليل سليم.

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشيء حول ذلك، ولكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه وقتلوه.

نعم، فإنّ حديثه المثير والباعث على الحماس والمليء بالاستدلالات القويّة الدامغة، واللفتات الخاصّة والنافذة إلى القلب، ليس لم يكن لها الأثر الإيجابي في تلك القلوب السوداء المليئة بالمكر والغرور فحسب، بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقد والبغضاء وسعرت فيها نار العداوة، بحيث إنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشجاع وقتلوه بمنتهى القسوة والغلظة. وقيل إنّهم رموه بالحجارة، وهو يقول: «**اللهمّ اهدِ قومي!**» حتّى قتلوه[1].

وفي رواية أخرى: أنّهم وطؤوه بأرجلهم حتّى مات[2].

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هي: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وهذا التعبير ورد في خصوص شهداء طريق الحقّ في آيات أخرى من القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[3]. والجدير بالذكر والملاحظة أنّ هذا التعبير يدلّ على أنّ دخوله الجنّة كان مقترناً باستشهاده شهادة هذا الرجل المؤمن، بحيث إنّ الفاصلة بين الإثنين قليلة إلى درجة أنّ القرآن المجيد بتعبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّة بدلاً عن شهادته، فما أقرب طريق الشهداء إلى السعادة الدائمة! وواضح أنّ المقصود من الجنّة هنا، هي جنّة البرزخ؛ لأنّه يستفاد من الآيات ومن الرّوايات أنّ الجنّة الخالدة في يوم القيامة ستكون نصيب المؤمنين، كما أنّ جهنّم ستكون نصيب المجرمين.

(1) تفسير القرطبي، ج15، ص18 و19.
(2) تفسير البيان، الطوسي، ج8، ص414.
(3) سورة آل عمران، الآية 169.

وعليه، فإنّ هناك جنّة وجهنّم أخريين في عالم البرزخ، وهما نموذج من جنّة وجهنّم يوم القيامة، فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «**والقبر روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النار**»[1].

وما احتمله بعضهم من أنّ هذه الجملة إشارة إلى خطاب يخاطب به هذا المؤمن الشهم في يوم القيامة، وأنّها تحوي جنبة مستقبلية، فهو خلاف لظاهر الآية.

على كلّ حال، فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة الله وفي نعيم الجنان، وهناك لم تكن له سوى أمنية واحدة قالَ: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾.

يا ليت قومي يعلمون بأيّ شيء؟ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[2].

أي: ليست أنّ لهم عين تبصر الحقّ، لهم عين غير محجوبة بالحجب الدنيوية الكثيفة والثقيلة، فيروا ما حجب عنهم من النعمة والإكرام والاحترام من قبل الله، ويعلموا أي لطف شملني به الله في قبال عدوانهم عليّ...

لو أنّهم يبصرون ويؤمنون، ولكن يا حسرة!

في حديث عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما يخصّ هذا المؤمن: «**إنّه نصح لهم في حياته وبعد موته**»[3].

ومن الجدير بالملاحظة أنّه تحدّث أوّلاً عن نعمة الغفران الإلهي، ثمّ عن الإكرام، إذ يجب أوّلاً غسل الروح الإنسانية بماء المغفرة لتنقيتها من الذنوب، وحينها تأخذ محلّها على بساط القرب والإكرام الإلهي.

والجدير بالتأمّل أنّ الإكرام والاحترام والتجليل، وإن كان من نصيب الكثير من العباد، وأصولاً فإنّه -أي الإكرام- يتعاظم مع التقوى جنباً إلى جنب، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ

(1) بحار الأنوار، المجلسّي، ج6، ص218.

(2) بخصوص موقع (ما) في الجملة احتملت ثلاثة احتمالات: إمّا مصدرية، أو موصولة، أو استفهامية، ولكن يبدو أنّ احتمال كونها استفهامية بعيد، ويبقى أنّ الأقرب كونها موصولة، مع أنّ المعنى لا يختلف كثيراً حينما تكون مصدرية.

(3) تفسير القرطبي، ج8، ص20.

أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1]. ولكنّ (الإكرام) بشكل مطلق وبدون أدنى قيد أو شرط جاء في القرآن الكريم خاصاً لمجموعتين:

الأولى: الملائكة المقرّبون: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

والثانية: الأشخاص الذين بلغوا بإيمانهم أكمل الإيمان ويسمّيهم القرآن «**المخلصين**» فيقول عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾[3] [4].

وعلى كلّ حال، فقد كان هذا مآل ذلك الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذي أدّى رسالته ولم يقصّر في حماية الرسل الإلهيين، وارتشف في النهاية كأس الشهادة، وقفل راجعاً إلى جوار رحمة ربّه الكريم.

ولكن، لننظر ما هو مصير هؤلاء القوم الطغاة الظلمة؟

مع أنّ القرآن الكريم لم يورد شيئاً في ما انتهى إليه عمل هؤلاء الثلاثة من الرسل الذين بعثوا إلى هؤلاء القوم، لكن جمعاً من المفسّرين ذكروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أيضاً إضافة إلى قتلهم ذلك الرجل المؤمن، وفي حال أنّ بعضهم الآخر يصرّح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحديثه وبشهادته لكي يتسنّى لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حيك ضدّهم من المؤامرات، والانتقال إلى مكان أكثر أمناً، ولكن نزول العذاب الإلهي الأليم على هؤلاء القوم قرينة على ترجيح القول الأوّل، وإن كان التعبير «**من بعده**» (أي بعد شهادة ذلك المؤمن) يدلّل -في خصوص نزول العذاب الإلهي- على أنّ القول الثاني أصحّ (تأمّل بدقّة!).

رأينا كيف أصرّ أهالي مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، والآن لننظر ماذا كانت نتيجة عملهم؟

القرآن الكريم يقول في هذا الخصوص: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾.

(1) سورة الحجرات، الآية 13.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان 26 - 27.
(3) سورة المعارج، الآية 35.
(4) تفسير الميزان، الطبطبائي، ج17، ص82.

فلسنا بحاجة إلى تلك الأمور، وأساساً فانّه ليس من سنّتنا لإهلاك قوم ظالمين أن نستخدم جنود السماء، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية للقضاء عليهم جميعاً وإرسالهم إلى ديار العدم والفناء، إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم ومعيشتهم إلى عوامل موت وفناء، وفي لحظة خاطفة تقلب حياتهم عاليها سافلها.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

هل أنّ تلك الصيحة كانت صدى صاعقة نزلت من الغيوم على الأرض وهزّت كلّ شيء، ودمّرت كلّ العمران الموجود، وجعلت القوم من شدّة الخوف والوحشة يستسلمون للموت؟

أو أنّها كانت صيحة ناتجة عن زلزلة خرجت من قلب الأرض فضجّت في الفضاء بحيث إنّ موج انفجارها أهلك الجميع.

أيّاً كانت فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة في وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كلّ شيء عن التحرّك، وهكذا هي قدرة الله سبحانه وتعالى، وهكذا هو مصير قوم ضالّين لا نفع فيهم.

الآية الأخيرة تتعرّض إلى طريقة جميع متمرّدي التاريخ إزاء الدعوات الإلهية لأنبياء الله بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وأسفاه عليهم أن أغلقوا نافذة الرحمة الإلهية عليهم! وأسفاه عليهم أن كسّروا مصباح هدايتهم!، هؤلاء الضالّون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الاستماع بآذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنّهم أصرّوا على السخرية والاستهزاء منهم، ثمّ بادروا إلى قتلهم. مع أنّهم علموا المصير المشؤوم للطغاة الكفّار من قبلهم، وسمعوا أو قرأوا على صفحات التأريخ كيف كانت خاتمتهم الأليمة، ولكنّهم لم يعتبروا بالمواعظ وسلكوا نفس المسير، وصاروا إلى نفس المصير.

ومن الواضح أنّ هذه الجملة هي قول الله تعالى؛ لأنّ جميع هذه الآيات توضيح منه

تعالى، غير أنّ من الطبيعي أن الحسرة هنا -بمعناها المتعارف وهو الغمّ على ما فات- لا تنطبق على الله سبحانه وتعالى، كما أنّ (الغضب) وأمثاله أيضاً لا يصدر بمفهومه المتعارف من الله سبحانه، بل المقصود أنّ حال تلك الفئة التعيسة سيء إلى حدّ أنّ كلّ إنسان يطّلع عليه يتأسّف ويتحسّر متسائلاً: لماذا غرقوا في تلك الدوامة مع توفّر كلّ وسائل النجاة؟

التعبير بـ «**عباد**» إشارة إلى أنّ العجب أن يكون هؤلاء العباد غارقين بنعم الله سبحانه وتعالى، ثمّ يرتكبون مثل تلك الجنايات.

بحوث

1. قصّة رسل أنطاكية

أنطاكية واحدة من أقدم مدن الشام التي بنيت -على قول بعضهم- بحدود ثلاثمئة سنة قبل الميلاد. وكانت تعدّ من أكبر ثلاث مدن رومية في ذلك الزمان من حيث الثروة والعلم والتجارة.

تبعد أنطاكية مئة كيلومتر عن مدينة حلب، وستّين كيلومتراً عن الإسكندرية.

فتحت من قبل أبي عبيدة الجراح في زمن الخليفة الثاني، وقَبِل أهلها دفع الجزية والبقاء على ديانتهم.

احتلّها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى، وحينما أراد الفرنسيون ترك الشام ألحقوها بالأراضي التركية خوفاً على أهالي أنطاكية من أن يمسّهم سوء بعد خروجهم؛ لأنّهم نصارى مثلهم.

أنطاكية تعتبر بالنسبة إلى النصارى كالمدينة المنورة للمسلمين، المدينة الثانية في الأهمية بعد بيت المقدس، التي ابتدأ المسيح عليه السلام منها دعوته، ثمّ هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السلام -بولس وبرنابا[1]- إلى أنطاكية ودعوا الناس هناك إلى المسيحية، وبذا

(1) «بولس» من المبلّغين المسيحيين المعروفين الذي سعى كثيراً في نشر الديانة المسيحية. «برنابا»- بفتح الباء- اسمه الأصلي «يوسف» كان من أصدقاء بولس ومرقس، له إنجيل معروف ذكر فيه كثيراً البشارة بظهور نبي الإسلام، ولكن المسيحيين لا يعتقدون بصحّته ويقولون أنّ هذا الإنجيل قد كتبه أحد المسلمين.

انتشرت المسيحية هناك، وبهذا اللحاظ أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينة لأهميّتها[1].

الطبرسي -أعلى الله مقامه- في تفسير مجمع البيان يقول: قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو (حبيب) صاحب (يس) فسلّما عليه.

فقال الشيخ لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.

فقال: أمعكما آية؟

قالا: نعم، نحن نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

فقال الشيخ: إنّ لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين.

قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى.

وكان لهم ملك يعبد الأصنام، فانتهى الخبر إليه، فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر.

فقال الملك: ولنا إله سوى آلهتنا؟

قالا: نعم، من أوجدك وآلهتَك.

قال: قوما حتّى أنظر في أمركما، فأخذهما الناس في السوق وضربوهما.

ورُوي أنّ عيسى عليه السلام بعث هذين الرّسولين إلى أنطاكية فأتياها، ولم يصلا إلى ملكها، وطالت مدّة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا الله، فغضب الملك وأمر بحبسهما، وجلد كلّ واحد منهما مئة جلدة، فلمّا كذب الرسولان وضربا، بعث عيسى (شمعون

(1) تفسير «أبو الفتوح الرازي» وهامش العالم المرحوم «الشعراني».

الصفا) رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكّراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثمّ قال له ذات يوم: أيّها الملك، بلغني أنّك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل سمعت قولهما؟ قال الملك: حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا؟

قالا: الله الذي خلق كلّ شيء، لا شريك له.

قال: وما آيتكما؟

قالا: ما تتمنّاه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة. فما زالا يدعوان حتّى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاها في حديقتيه، فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولإلهك شرفاً؟

فقال الملك: ليس لي عنك سرّ، إنّ إلهنا الذي نعبده لا يضرّ ولا ينفع.

ثمّ قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به وبكما.

قالا: إلهنا قادر على كلّ شيء.

فقال الملك: إنّ هاهنا ميّتاً مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه -وكان غائباً-، فجاءوا بالميّت وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربّهما علانية، وجعل شمعون يدعو ربّه سرّاً، فقام الميّت وقال لهم: إنّي قدمت منذ سبعة أيّام، وأدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذّركم ممّا أنتم فيه، فآمنوا بالله فتعجّب الملك.

فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر في الملك، دعاه إلى الله فآمن، وآمن من أهل مملكته قوم، وكفر آخرون.

ونقل العيّاشي في تفسيره مثل هذه الرواية عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السّلام) مع بعض التفاوت[1].

ولكن بمطالعة الآيات السابقة، يبدو من المستبعد أنّ أهل تلك المدينة كانوا قد آمنوا؛ لأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ويمكن أن يكون هناك اشتباه في الرواية من جهة الراوي.

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أنّ التعبير بـ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ في الآيات أعلاه يدلّ على أنّهما أنبياء مرسلون من الله تعالى، علاوة على أنّ القرآن الكريم يقول: بأنّ أهالي تلك المدينة ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾، ومثل هذه التعبيرات ترد في القرآن الكريم عادة فيما يخصّ الأنبياء، وإن كان قد قيل بأنّ رسل الأنبياء هم رسل الله، ولكنّ هذا التوجيه يبدو بعيداً.

2. ما نتعلّمه من هذه القصّة

نتعلّم من القصّة التي عرضتها الآيات السابقة أموراً عديدة، منها:

أ. أنّ المؤمنين لا يستوحشون أبداً من سلوك طريق الله سبحانه وتعالى منفردين كما هو حال المؤمن «**حبيب النجّار**» الذي لم ترهبه كثرة المشركين في مدينته.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله**»[2].

ب. المؤمن عاشق لهداية الناس، ويتألّم لضلالهم، وحتّى بعد شهادته يتمنّى أن يرى الآخرون مقامه ليكون سبباً في إيمانهم!

ج. محتوى دعوة الأنبياء بحدّ ذاتها دليل على هدايتهم وحقّانيتهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

(1) مجمع البيان، الطبرسي، ج4، ص419.

(2) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الامام علي عليه السلام، الخطبة 201، ص319.

د. الدعوة إلى الله يجب أن تكون خالية من أي ترقّب للأجر؛ لكي تكون مؤثّرة.

هـ. تارة يكون الضلال مكشوفاً وواضحاً؛ أي إنّه ضلال مبين، وعبادة الأوثان تعدّ مصداقاً واضحاً لِـ «**الضلال المبين**».

و. أهل الحقّ يستندون إلى الواقعيات، والضالّون يستندون إلى أوهام وظنون.

ز. إذا كان هناك شؤم ونكبات، فإنّ سببها نفس الإنسان وأعماله.

ح. الإسراف سبب لكثير من الانحرافات والنكبات.

ط. وظيفة الأنبياء وأتباعهم ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ والدعوة العلنية، سواء استجاب الناس أو لم يستجيبوا.

ي. التجمّع والكثرة من العوامل المهمّة للنصرة والعزّة والقوّة ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾.

ك. إنّ الله لا يحتاج لتدمير أئمّة التمرّد والعصيان إلى تجنيد طاقات الأرض والسماء، بل تكفي الإشارة.

ل. لا فاصلة بين الشهادة والجنّة، والشهيد قبل أن يغادر الدنيا يقع في أحضان الحصور العين[1].

م. إنّ الله يطهّر الإنسان من الذنوب أوّلاً ثمّ يقربه إلى جوار رحمته ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

ن. يجب على مريد الحقّ أن لا يستوحش من مخالفة الأعداء؛ لأنّ ذلك ديدنهم على مدى الدهور ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

وأيّ حسرة أكبر وأشدّ من أن يغلق الإنسان -لمجرّد تعصّبه وغروره- عينيه، فلا يبصر الشمس المضيئة الساطعة.

س. كان المستضعفون يؤمنون بالأنبياء قبل جميع الناس ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾.

(1) ذكرنا رواية شريفة مفصّلة عن رسول الله ﷺ في هذا المجال عند تفسير سورة (آل عمران) ذيل الآية 169.

ع. وهم الذين لم يتعبوا ولم يكلّوا من طريق الحقّ، ولم يكن لسعيهم واجتهادهم حدّ ﴿يَسۡعَىٰ﴾.

ف. يجب تعلّم طريقة التبليغ والدعوة إلى الله من الرسل الإلهيين الذين استفادوا من جميع الأساليب والطرائق المؤثّرة لأجل النفوذ في قلوب الغافلين، وفي الآية أعلاه والروايات التي أدرجناها نموذج على ذلك.

3. ثواب وعقاب البرزخ

ورد في الآيات الماضية أنّ (المؤمن حبيب النجّار) بعد شهادته دخل الجنّة وتمنّى أن لو يعلم قومه بمصيره. ومن المسلّم أنّ هذه الآيات -كما هو الحال في الآيات الأخرى التي تتحدّث عن الشهداء- ليست مربوطة بالجنّة المقصودة بعد يوم القيامة والتي تكون بعد البعث والحساب في المحشر.

من هنا يتّضح أنّ وراءنا جنّة وجحيماً في البرزخ أيضاً، يتنعّم فيها الشهداء ويحترق فيها الطغاة من أمثال آل فرعون ومع الالتفات إلى هذا المعنى، تنحلّ كثير من الإشكالات فيما يخصّ الجنّة والنار، من أمثال ما ورد في روايات الإسراء والمعراج وأمثالها.

4. قادة الأمم

نقل في تفسير الثعلبي عن الرّسول الأكرم ﷺ: «**سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: عليّ بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون، فهم الصدّيقون، وعليّ أفضلهم**»[1].

كما ورد هذا المعنى تقريباً في رواية عن رسول الله ﷺ، أوردها صاحب تفسير «**الدرّ المنثور**» عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «**الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجّار مؤمن آل ياسين الذي قال: يا قوم اتّبعوا المرسلين، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله، وعليّ بن أبي طالب، وهو أفضلهم**»[2].

(1) مجمع البيان، الطبرسي، ج4، ص421 القرطبي، الميزان، نور الثقلين.

(2) تفسير الدرّ المنثور للسيوطي، على ما نقله السيد الطبطبائي في تفسير الميزان، ج17، ص86.

الآيات 31 إلى 33

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

التّفسير

الغفلة الدائمة

تتحدّث هاتان الآيتان -استناداً إلى ما مرّ في الآيات السابقة- عن الغفلة المستمرّة لمجموعة كبيرة من البشر في هذا العالم على مرّ العصور والقرون، فتقول الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾[1].

فهؤلاء الكفّار ليسوا بدعاً من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا على الحقّ مثلهم عاشوا في هذه الدنيا، ومصائرهم الأليمة التي ملأت صفحات التأريخ، والآثار المعبّرة التي بقيت في مدنهم المدمّرة، كلّها شاخصة أمام العيان، فهل يكفي ذلك المقدار لتحقّق العبرة والإعتبار؟

ولكن على من يعود ضمير الجمع في ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾؟

(1) الاستفهام في الآية أعلاه استفهام تقريري و﴿كَمْ﴾ خبرية، وهي هنا بمعنى الكثرة في محلّ مفعول به للفعل ﴿يَرَوْا۟﴾ و﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ توضيح لذلك. و«قرون» كما ذكرنا سابقاً تأتي بمعنى العصور وهي جمع (قرن) مئة سنة أو بمعنى (الجيل) الذي يعيش في زمان معيّن.

احتمل المفسّرون عدّة أوجه:

الأوّل: أنّه يعود على ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ الذين تحدّثت الآيات السابقة حولهم.

والثاني: أنّه يعود على أهل مكّة الذين نزلت هذه الآيات لتنبيههم.

ولكن يستدلّ من الآية السابقة ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ على أنّ المقصود هو جميع البشر، إذ إنّ كلمة ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾ في الآية المذكورة تشمل جميع البشر على طول التاريخ، الذين ما إن جاءهم الأنبياء حتّى هبّوا لمخالفتهم وتكذيبهم والاستهزاء بهم. وعلى كلّ حال، فهي دعوة لجميع البشر بأن يتأمّلوا في تأريخ القدماء، ويعتبروا من آثارهم التي خلّفوها، بفتح قلوبهم وبصائرهم.

في آخر الآية يضيف تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[1].

أي إنّ المصيبة الكبرى في استحالة رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران ما فاتهم وتبديل ذنوبهم حسنات، لأنّهم دمّروا كلّ الجسور خلفهم، فلم يبقَ لهم سبيل للرجوع أبداً.

هذا التّفسير يشبه بالضبط ما قاله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام حينما تحدّث في أخذ العبرة من الموتى، فقال: «**لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً، ولا في حسن يستطيعون ازدياداً**»[2].

وتضيف الآية التالية: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾[3].

أي إنّ المسألة لا تنتهي بهلاكهم وعدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا. كلّا، فإنّ الموت في الحقيقة بداية الشوط وليس نهايته، فعاجلاً سيحضر الجميع في عرصة المحشر للحساب، ثمّ العقاب الإلهي المتلاحق والمستمر في انتظارهم.

(1) هذه الجملة بدل عن ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ والتقدير «ألم يروا أنّهم إليهم لا يرجعون»، بعضهم احتمل أيضاً أنّ الجملة حالية (حال الهالكين).

(2) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الامام علي عليه السلام، الخطبة 188.

(3) المعروف بين المفسّرين حول تركيب هذه الآية: «إنْ» نافية. وبعضهم قال: إنّها مخفّفة؛ لذا فإنّها لا تنصب ما بعدها، و«لمّا» بمعنى «إلّا»، بلحاظ أنّ ذلك ورد في كلام العرب، و(جميع) بمعنى «مجموع» خبر «كلّ» (تنوين كل) بدل عن مضاف إليه محذوف تقديره «هم» والأصل «كلّهم»، و«محضرون» إمّا خبر بعد خبر، أو صفة لِـ «جميع» وعلى ذلك تكون الجملة في التقدير هكذا «وما كلّهم إلّا مجموعون يوم القيامة محضرون لدينا».

إذا كانت الحال كذلك، أفلا ينبغي عليهم الاعتبار من مصير هؤلاء السابقين لهم، والاستفادة من الفرصة قبل الفوت للابتعاد عن مواجهة ذلك المصير المشؤوم.

نعم، فلو كان الموت خاتمة لكلّ شيء، لكان ممكناً أن يقولوا بأنّه بداية راحتهم، ولكن يا حسرة! وكما يقول الشاعر:

ولــــو أنّـــــا إذا مــتــنــا تُــركــنــا لــكــان المـــوت راحـــة كــلّ حــيّ
ولــكــنّــا إذا مــتــنــا بُــعــثــنــا ونُــســألــة بــعــده عــن كــلّ شيّ

الآيات 33 إلى 36

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا
مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا
جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا
مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا
عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾

التّفسير

آيات أخرى!

ممّا مرّ بحثه في الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضدّ الشرك وعبادة الأوثان، وكذلك التعرّض إلى مسألة المعاد في الآية الأخيرة من المقطع السابق، توضّح الآيات -مورد البحث- مسألتي التوحيد والمعاد معاً لإيقاظ المنكرين لهاتين المسألتين ودفعهم إلى الإيمان.

تتعرّض الآية الأولى إلى قضيّة إحياء الأرض الميتة والبركات التي تعود على الإنسان من ذلك فتقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾[1].

قضيّة الحياة والبقاء من أهمّ دلائل التوحيد، وهي قضيّة في واقعها معقّدة ومليئة بالألغاز وباعثة على الدهشة، إذ إنّها حيّرت عقول العلماء جميعاً، فبرغم التطور والتقدّم

(1) وردت احتمالات عديدة في إعراب الآية، ولكن أوضحها على ما يبدو، هو كون ﴿ءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ خبر مقدّم و﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ مبتدأ مؤخّر، و﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ جملة استئنافية وهي توضيح وتفسير للجملة السابقة.

الحاصل في وسائل الدراسة وفي العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ! وحتّى الآن لم يعلم تحت تأثير أيّ العوامل تتحوّل موجودات ميتة إلى خلايا حيّة؟

حتّى الآن، لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟ وما هي القوانين المعقّدة التي تحكمها؟ بحيث إنّها بمجرد توفّر الشرائط المساعدة تبدأ بالتحرّك والنمو والرشد. وتستلّ من ذرّات التراب الميتة وجودها، وبهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميتة إلى أنسجة موجودات حيّة، فتعكس في كلّ يوم مظهراً مختلفاً من مظاهر حياتها ونموّها.

قضيّة الحياة في عالم النباتات والحيوانات وإحياء الأرض الميتة تعتبر من جانب دليلاً على وجود معلومات وقوانين دقيقة سخّرت في خلق ذلك العالم، ومن جانب آخر تعتبر دليلاً على البعث بعد الموت.

ومن الواضح أنّ الضمير في ﴿لَّهُمُ﴾ يعود على كلمة ﴿ٱلْعِبَادِۚ﴾ التي ورد ذكرها في الآيات السابقة، والمقصود من ﴿ٱلْعِبَادِۚ﴾ هنا هم جميع الذين وقعوا في خطأ في تقدير مسألة المبدأ والمعاد، والذي عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثاً على الحسرة والأسف.

تنكير ﴿ءَايَةٌ﴾، إشارة إلى عظمة وأهميّة ووضوح تلك الآية التوحيدية.

جملة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إشارة من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، ولكن له فوائد أخرى كتغذية الحيوانات، وصناعة الأصباغ، والأدوية، والأمور الأخرى التي لها أهميّة في حياة الإنسان.

ومن جانب آخر فإنّ تقديم ﴿مِنْهُ﴾ على ﴿يَأْكُلُونَ﴾ والذي يدلّ عادة على الحصر، هو لبيان أنّ أكثر وأفضل تغذية للإنسان هي من المواد النباتية إلى درجة أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآية التالية توضيح وشرح للآية الأولى من هذه الآيات، فهي توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

كان الحديث في الآية الأولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية والمغذّية والتي يعدّ التمر والعنب أبرز وأهمّ نماذجها، حيث يعتبر كلّ منهما غذاء كاملاً.

وكما أشرنا سابقاً فقد دلّت دراسات العلماء وبحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات والمواد الحياتية المختلفة واللازمة لجسم الإنسان، إضافة إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما وتناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

﴿أَعۡنَٰبٖ﴾ جمع «**عنب**» و«**النخيل**» -كما يقول الراغب في مفرداته- جمعه «**نخل**» ولكن باختلاف بين الكلمتين، فالعنب يطلق على الثمرة نفسها، ومن النادر إطلاقه على شجرة العنب ولكن «**النخل**» اسم للشجرة، والثمرة يقال له «**الرطب**» أو «**التمر**».

يرى بعضهم أنّ هذا الاختلاف في التعبير عن الفاكهتين بالإشارة إلى الشجرة مرّة وإلى الثمرة مرّة أخرى، بسبب أنّ النخلة -وكما هو معروف- كلّها مفيدة وقابلة للاستفادة، جذعها وجريدها وسعفها وأخيراً ثمرها، في حين أنّ شجرة الكرم غالباً ما يستفاد من عنبها فقط، وأمّا ساقها وأوراقها فلا يستفاد منها إلّا قليلاً.

وأمّا ما ورد من ذكر الاثنتين بصيغة الجمع، فيبدو أنّه إشارة إلى الأنواع المختلفة لكلّ منهما، إذ إنّ كلاً منهما لها عشرات الأنواع تختلف في أشكالها وخصائصها ومذاقها.

والجدير بالملاحظة -أيضاً- أنّ الحديث في هذه الآية تعرّض إلى إحياء الأرض الميتة، دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذي عادة ما يذكر في مثل هذه المواضع، وورد الحديث هنا عن ﴿ٱلۡعُيُونِ﴾؛ وذلك لأنّ المطر كافٍ لزراعة الكثير من المحاصيل والنباتات، في حين أنّ الأشجار المثمرة تحتاج إلى الماء الجاري أيضاً.

﴿فَجَّرۡنَا﴾ من مادّة «**تفجير**» وهو شقّ الشيء شقّاً واسعاً، ومن هنا استخدمت الكلمة للتعبير عن العيون، لأنّها تشقّ الأرض وتدفع ماءها إلى سطح الأرض[1].

الآية التالية تشرح وتوضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكي يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد في ذلك ودون تدخّل الإنسان في صناعتها... ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

(1) من الجدير بالملاحظة أنّ الصيغة الثلاثية المجردة لها «فجر» بمعنى (الشقّ) وهنا استخدمت على وزن «تفعيل» بمعنى التكثير والتشديد.

نعم، ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل بمجرّد جنيها من أغصانها، ولا تحتاج إلى طبخ أو أيّة تغييرات أخرى، ذلك إشارة إلى غاية لطف الله بهذا الإنسان وكرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ، يمكن تجميعه وتعليبه لكي يحفظ لمدّة طويلة بدون أن ينقص من قيمته الغذائية شيء، على خلاف الأغذية التي يصنعها الإنسان من المواد الطبيعية التي أعطاها الله له، فهي غالباً ما تكون سريعة التلف والفساد.

ويوجد تفسير آخر أيضاً لمعنى الآية، وهو جدير بالنظر، وذلك أنّ القرآن الكريم يريد الإشارة إلى الفواكه التي يمكن الاستفادة منها دون إدخال تغيير عليها، وكذلك إلى أنواع الأغذية المختلفة التي يمكن الحصول عليها من تلك الفواكه، بالقيام ببعض الأمور (في التّفسير الأوّل تكون (ما) في الجملة نافية، بينما في التّفسير الثاني تكون موصولة).

وعلى كلّ حال، فالهدف هو تحريك حسّ تشخيص الحقّ، والشكر في الإنسان، لكي يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة الله عن طريق الشكر؛ لأنّ شكر المنعم أوّل قدم في طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدّث عن تسبيح الله وتنزيهه، وتشجب شرك المشركين الذي ذكرته الآيات السابقة، وتوضّح طريق التوحيد وعبادة الأحد الصمد للجميع، فتقول: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

نعم، فالله الذي خلق كلّ هذه الأزواج في هذا العالم الواسع، لا حدّ لعلمه وقدرته ومنزّه عن كلّ نقص وعيب، لذا فلا شريك ولا شبيه له، وإن عدّ بعض الناس الحجر والخشب الجامد الميّت نظائر له، فإنّ تلك النسبة الباطلة لا تنقص من مقام كبريائه شيئاً.

(1) «سبحان» على قول جماعة من المفسّرين وعلماء الأدب هي «علم» للتسبيح، لأنّ العلم (الاسم الخاصّ) يكون أحياناً للأشخاص فيسمّى «علم الشخص»، وأحياناً للجنس فيسمّى «علم الجنس»، وأحياناً للمعنى فيسمّى «علم المعنى» بناء على هذا فمفهوم «سبحان» هو تنزيه وتقديس الله من كلّ عيب ونقص، تنزيهاً يتناسب وعظمة الخالق، والعلم لا يضاف إلّا في «علم المعنى». قال بعضهم أيضاً: أنّ «سبحان» لها معنى مصدري، ومفعول مطلق لفعل مقدّر، وفي أيّة صورة فهي تبيّن التنزيه الإلهي بأوكد وجه.

بديهي أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد ومنهاج عملي من أجل طيّ طريق التكامل.

أمّا ما هو المقصود من «**أزواج**» هنا، فللمفسّرين أقوال كثيرة.

ما هو مسلّم به أنّ «**أزواج**» جمع «**زوج**» عادة، تطلق على الذكر والأنثى من أي نوع، سواء كان ذلك في عالم الحيوان أو في غيره، ثمّ شمل المعنى كلّ اثنين يقترنان مع بعضهما بعضاً، أو حتّى إذا تضادّا، حتّى الغرفتين المتشابهتين في البيت يقال لهما زوج، ودفّتي الباب وهكذا، فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال، ليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ، أي جنس المذكر والمؤنث، والقرآن الكريم يخبر من خلال هذه الآية عن وجود ظاهرة الزوجية في جميع عوالم النبات والإنسان والموجودات الأخرى التي لم يطّلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التي لم تحدّد سعة دائرة الزوجية فيها حتّى الآن. أو إشارة إلى الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار، وهذه الحقيقة لم تعرف سابقاً، وما عرف منها في العصر الحاضر إلّا جانب يسير.

أو أنّها إشارة إلى موجودات أخرى تقطن كواكب أخرى في هذا الكون المترامي. أو موجودات حيّة لا ترى بالعين المجرّدة، وإن كان العلماء في وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنّ ليس في تلك الموجودات الحيّة ذكر وأنثى، ولكن عالم هذه الموجودات الحيّة غامض ومعقّد إلى درجة أنّ العلم البشري حتّى الآن لم يلج كلّ غوامضها ومكنوناتها.

وحتّى وجود الزوجية في عالم النبات -كما قلنا- لم يكن معلوماً منها في عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدودة كما في النخل وأمثاله، وقد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّه، وقد ثبت أخيراً من البحوث العلمية أنّ الزوجية قضيّة عامّة وشاملة في عالم النبات.

كذلك احتمل أيضاً أن تكون قضيّة الزوجية هنا إشارة إلى وجود البروتونات الموجبة والإلكترونات السالبة في الذرّة التي تعتبر الأساس في تشكيل كلّ الموجودات في عالم المادّة،

ولم يكن الإنسان مطّلعاً على هذه الحقيقة والزوجية قبل تفجير الذرّة، ولكن بعد ذلك ثبت علمياً وجود الأزواج السالبة والموجبة في نواة الذرّة والالكترونات التي تدور حولها.

بعضهم اعتبر «**الزوجية**» هنا إشارة إلى تركيب الأشياء من «**مادّة**» و«**صورة**» أو «**جوهر**» و«**عرض**»، وبعضهم الآخر قالوا: إنّها كناية عن «**الأصناف والأنواع المختلفة**» للنباتات والبشر والحيوانات وسائر موجودات العالم.

ولكنّ الواضح أنّه حينما نستطيع حمل هذه الألفاظ على المعنى الحقيقي (جنس المذكّر والمؤنّث)، ولا نجد قرينة على خلاف ذلك، فلا داعي لأن نبحث بعد ذلك عن المعاني الكناية، وكما لاحظنا فإنّ هناك عدّة تفاسير جميلة للزوجية بالمعنى الحقيقي لها.

وعلى كلّ حال، إنّ هذه الآية واحدة من الآيات التي توضّح محدودية علم الإنسان، وتدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا وعن معلوماتنا حتّى الآن.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم
مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ
ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ
مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩
لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا
ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠

التّفسير

هذه الآيات تتحدّث في قسم آخر من آثار عظمة الله في عالم الوجود، وحلقة أخرى من حلقات التوحيد التي مرّ منها في الآيات السابقة ما يتعلّق بالمعاد وإحياء الأرض الميتة، ونمو النباتات والأشجار.

تقول الآية الكريمة الأولى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾.

﴿نَسۡلَخُ﴾ من مادّة (سلخ) وتعني في الأصل نزع جلد الحيوان، والتعبير في الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، ينزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتي، والتأمّل في هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، وهي أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، وأنّ النور والإضاءة صفة عارضة عليها تأتيها من مصدر آخر، فهو كاللباس الذي يرتدى، وحينما يخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعي للبدن[1].

(1) الراغب في «المفردات» يقول: السلخ نزع جلد الحيوان، يقال سلخته فانسلخ، وعنه استعير سلخت درعه نزعتها، وسلخ الشهر وانسلخ، ولكن بعض المفسّرين يقولون: إنّ ذلك في حالة تعدّي «سلخ» بحرف الجرّ «عن» وإذا تعدّى بالحرف «من» يكون بمعنى الإخراج، ولكن ليس من دليل واضح في كتب اللغة على هذا التفاوت- على ما نعلم- وإن كان «لسان العرب» يقول: «انسلخ النهار من الليل خرج منه خروجا» والظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنى الأوّل.

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمة الليل، وكأنّه يريد -بعد أن تعرّض إلى كيفية إحياء الأرض الميتة كآية من آيات الله في الآيات السابقة- أن يعرض نموذجاً عن الموت بعد الحياة من خلال مسألة تبديل النور بظلمة الليل.

على كلّ حال، عندما يستغرق الإنسان في ظلمة الليل، ويتذكّر النور وبركاته ونشاطه ومنبعه يتعرّف -بتأمّل يسير- على خالق النور والظلام.

الآية التي بعدها تتعرّض إلى النور والإضاءة وتذكر الشمس فتقول: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾[1].

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر، أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ فللمفسّرين أقوال متعدّدة:

قال بعضهم: إنّ ذلك إشارة إلى حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، تلك الحركة التي ستستمر إلى آخر عمر العالم الذي هو نهاية عمر الشمس ذاتها.

وقال آخرون: إنّه إشارة إلى ميل الشمس في الصيف والشتاء نحو الشمال والجنوب على التوالي؛ لأنّنا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها في بدء الربيع بطرف الشمال، لتدخل في مدار (23) درجة شمالاً، وتعود مع بدء الصيف قليلاً قليلاً حتّى تنتهي إلى خطّ اعتدالها عند بداية الخريف وتستمر على خطّ سيرها ذلك باتّجاه الجنوب حتّى بدء الشتاء، ومن بدء الشتاء تتحرّك باتّجاه خطّ اعتدالها حتّى تبلغ ذلك عند بدء الربيع. وبديهي أنّ جميع تلك الحركات في الواقع ناجمة عن حركة الأرض حول الشمس وانحرافها عن خطّ مدارها، وان كانت ظاهراً تبدو وكأنّها حركة الشمس.

وآخرون اعتبروا الآية إشارة إلى حركة الشمس الموضعية بالدوران حول نفسها، حيث أثبتت دراسات العلماء بشكل قطعي أنّ الشمس تدور حول نفسها[2].

---

(1) هذه الجملة لها إعرابان، فإمّا أن تكون معطوفة على ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ والتقدير (و آية لهم الشمس)، وإمّا أن تكون مبتدأ وخبر، فالشمس مبتدأ و ﴿تَجۡرِي﴾ خبر، وقد اخترنا الإعراب الأوّل.

(2) طبق هذا التّفسير فإنّ (اللام) في ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ بمعنى «في» ويكون التقدير «في مستقر لها».

وآخر وأحدث التفاسير التي ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيراً من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التي تكون المجموعة الشمسية جزءاً منها، وقيل إنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّاً أطلقوا عليه اسم «**وجا**».

كلّ هذه المعاني المشار إليها لا تتضارب فيما بينها، ويمكن أن تكون جملة «**تجري**» إشارة إلى جميع تلك المعاني ومعانٍ أخرى لم يصل العلم إلى كشفها، وسوف يتمّ كشفها في المستقبل.

وعلى كلّ حال، فإنّ حركة كوكب الشمس الذي يعادل مليون ومئتي الف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة ومنظمة في هذا الفضاء اللامتناهي، ليس مقدورا لغير الله سبحانه الذي تفوق قدرته كلّ قدرة وبعلمه اللامتناهي؛ لذا فإنّ الآية تضيف في آخرها ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أمّا آخر ما قيل في تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشئ عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذي يعطي لحياة الإنسان نظاماً وبرنامجاً معيّناً يؤدّي إلى تنظيم حياته من مختلف النواحي.

لذا، فإنّ الآية التالية تتحدّث عن حركة القمر ومنازلة التي تؤدّي إلى تنظيم أيّام الشهر؛ وذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾.

المقصود بـ «**المنازل**» تلك المستويات الثمانية والعشرون التي يطويها القمر قبل الدخول في المحاق والظلام المطلق. لأنّ القمر يمكن رؤيته في السماء إلى اليوم الثامن والعشرين، ولكنّه يكون في ذلك اليوم هلالاً ضعيفاً مائلاً لونه إلى الاصفرار، ويكون نوره قليلاً وشعاعه ضعيفاً جدّاً، وفي الليلتين الباقيتين من الثلاثين يوماً تنعدم رؤيته تماماً ويقال: إنّه في دور المحاق، ذلك إذا كان الشهر ثلاثين يوماً، أمّا إذا كان تسعة وعشرين يوماً، فإنّ نفس هذا الترتيب سيبدأ من الليلة السابعة والعشرين ليدخل بعدها القمر في المحاق.

تلك المنازل محسوبة بدقّة كاملة، بحيث إنّ المنجّمين منذ مئات السنين يستطيعون أن يتوقّعوا تلك المنازل ضمن حساباتهم الدقيقة.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى فهو تقويم سماوي طبيعي لا يحتاج إلى تعلّم القراءة والكتابة لمتابعته، بحيث إنّ أيّ إنسان يستطيع بقليل من الدقّة والدراية في أوضاع القمر خلال الليالي المختلفة... يستطيع بنظرة واحدة أن يحدّد بدقّة أو بشكل تقريبي أيّة ليلة هو فيها.

ففي الليلة الأولى يظهر الهلال الضعيف وطرفاه إلى الأعلى، ويزداد حجمه ليلة بعد ليلة حتّى الليلة السابعة حيث تكتمل نصف دائرة القمر، ثمّ تستمر الزيادة حتّى تكتمل الدائرة الكاملة للقمر في الليلة الرابعة عشرة ويسمّى حينئذ «**بدراً**». ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجياً حتّى الليلة الثامنة والعشرين، حيث يصبح هلالاً باهتاً يشير طرفاه إلى الأسفل.

نعم، فإنّ النظم يشكّل أساس حياة الإنسان، والنظم بدون التعيين الدقيق للزمن ليس ممكناً؛ لذا فإنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا هذا التقويم الدقيق للشهور والسنين في كبد السماء.

بعد استعراضنا لأشكال القمر ومنازله يتّضح تماما معنى الجملة التالية ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾[1].

وفي الحقيقة، إنّ الشبه بين العرجون والهلال من جوانب عديدة: من ناحية الشكل الهلالي، ومن ناحية اللون الأصفر، والذبول، وإشارة الأطراف إلى الأسفل، وكونه في وسط دائرة مظلمة تكون في حالة العرجون منسوبة إلى سعف النخل الأخضر، وبالنسبة للهلال منسوبة إلى السماء المظلمة.

(1) «عرجون» كما قال أغلب المفسّرين وأهل اللغة: من الانعراج وهو الاعوجاج والانعطاف. وعليه، فالنون زائدة وهو على وزن فعلون، ويعتقد آخرون أنّه مأخوذ من «عرجن» فالنون ليست زائدة، وبمعنى: أصل عنقود الرطب المتّصل بالنخلة، وتوضيح ذلك أنّ الرطب يظهر على شكل عنقود من النخلة، وأصل ذلك العنقود يكون على شكل مقوّس أصفر اللون يبقى معلّقا في النخلة، و«قديم»: بمعنى العتيق الذي مضى زمنه.

والوصف بـ ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ إشارة إلى كون العرجون عتيقاً، فكلّما مرّ عليه زمن وتقادم أكثر أصبح ضعيفاً وذابلاً واصفّر لونه وأصبح يشبه الهلال كثيراً قبل دخوله المحاق.

وسبحان الله! فقد تضمّن تعبير واحد قصير كلّ تلك الظرافة والجمال!

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدّث عن ثبات ودوام ذلك النظم في السنين والشهور، والنهار والليل، فقد وضع الله سبحانه وتعالى لها نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال في وضعها وحركتها، وبذا ثبت تاريخ البشر وانتظم بشكل كامل، تقول الآية: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

من المعلوم أنّ الشمس تطوي في دورانها خلال العام الأبراج الإثني عشر، في حين أنّ القمر يطوي منازله خلال شهر واحد. وعليه، فحركة القمر أسرع من حركة الشمس في مدارها اثنتي عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر في حركته فتقطع في شهر واحد ما تقطعه في سنة واحدة. وبذا يختلّ النظام السنوي لها.

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار، بحيث يدخل جزء منه في النهار، فيختلّ النظام الموجود، بل إنّهما -على مدى ملايين السنين- ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس في هذا البحث، هي الحركة بحسب حسّنا بها، واللافت للنظر هنا، هو أنّ هذا التعبير عن حركة الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هي المركز الثابت لحركة الأرض حولها، فمثلا يُقال: إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل، أو يُقال: وصلت الشمس إلى دائرة نصف النهار، أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل (الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطة ارتفاع لها في نصف الكرة الأرضية الشمالي في بداية الصيف أو بالعكس أدنى نقطة انخفاض في بداية الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوماً على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس وثبات الأخيرة ظلّت تستخدم؛ لأنّ النظر الحسّي يستشعر حركة الشمس وثبات الأرض، ومن هنا تستعمل هذه التعبيرات، وعلى هذا أيضاً يكون قوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

كذلك يُحتمل أن يكون المقصود من السباحة هنا حركة الشمس في فلكها مع المنظومة الشمسية والمجرّة التي نحن فيها، حيث إنّ الثابت علمياً حالياً أنّ المنظومة الشمسية التي نعيش فيها جزء من مجرّة عظيمة هي بدورها في حالة دوران؛ إذ إنّ ﴿فَلَكِ﴾ كما يقول أرباب اللغة بمعنى: بروز واستدارة ثدي البنت، ثمّ أطلقت على القطعة المدوّرة من الأرض أو الأشياء المدوّرة الأخرى أيضاً، ومنه أطلق على مسير الكواكب الدوراني.

جملة ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ في اعتقاد الكثير من المفسّرين، إشارة إلى كلّ من الشمس والقمر والنجوم الأخرى التي تتّخذ لنفسها مسارات ومدارات، وإن لم يرد ذكر النجوم في الآية، ولكن بملاحظة ذكر ﴿ٱلَّيْلُ﴾ واقتران ذكر النجوم مع القمر والشمس، لا يستبعد المعنى المذكور، خاصّة وأنّ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ورد بصيغة الجمع.

وكذلك يحتمل أن تكون الجملة إشارة إلى كلّ من الشمس والقمر والليل والنهار؛ لأنّ كلاً من الليل والنهار له مدار خاص، ويدور حول الأرض بدقّة، فالظلام يغطّي نصف الكرة الأرضية دوماً، والنور يغطّي النصف الآخر منها، وهما يتبادلان المواضع خلال أربع وعشرين ساعة ويتمّان دورة كاملة حول الأرض.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ من مادة «**سباحة**»، وهي كما يقول الراغب في المفردات: «**المرّ السريع في الماء والهواء. واستعير لحركة النجوم في الفلك والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المرّ السريع في عبادة الله!**»؛ لذا فإنّها في الآية إشارة إلى الحركة السريعة للأجرام السماوية، والآية تشبهها بالموجودات العاقلة المستمرة في دورانها، وقد ثبت حالياً أنّ الأجرام السماوية تنطلق بسرعة هائلة في الفضاء.

| بحوث |

1. حركة الشمس الدورانية والجريانية

«**الدوران**» لغة يطلق على الحركة المغزلية، في حال أنّ «**الجريان**» يطلق على الحركة الطولية، واللافت للنظر أنّ الآيات أعلاه، نسبت الحركتين إلى الشمس، فقالت: ﴿وَٱلشَّمْسُ

تَجْرِى﴾ و﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كانت المحافل العلمية أيّام نزول الآية متمسّكة بنظرية «**بطليموس**» التي كانت تقول بأنّ الأجرام السماوية ليس فيها حركة دورانية، بل إنّ باطن الأفلاك التي تتكوّن من أجسام بلّورية متراكمة بعضها على بعض كتراكم طبقات البصلة وثابتة، وحركتها تتبع حركة أفلاكها. وعليه، فلم يكن في تلك الأيّام معنى لا لجريان الشمس ولا غيره.

أمّا بعد أن تداعت الاسس التي تقوم عليها فرضية بطليموس في ضوء الاكتشافات الجديدة في القرون الأخيرة، وتحرّرت الأجرام السماوية من قيد الأفلاك البلورية، فقد قويت نظرية كون الشمس هي مركز المنظومة الشمسية، وهي ثابتة وجميع المنظومة الشمسية تدور حولها.

هنا أيضاً لم تكن تعبيرات الآيات أعلاه مفهومة فيما يتعلّق بحركة الشمس الطولية والدورانية، حتّى أثبت العلم بتطوّره عدّة حركات للشمس في العقود الأخيرة، وهي:

حركة الشمس الموضعية حول نفسها.

حركة الشمس الطولية مع المنظومة الشمسية باتّجاه نقطة محدّدة في السماء.

وحركتها الدورانية مع المجرّة التي تتبعها، وبذا ثبتت معجزة علمية أخرى للقرآن.

ولتوضيح هذه المسألة نورد ما ورد في إحدى دوائر المعارف حول حركة الشمس:

للشمس حركة ظاهرية وأخرى واقعية، وتشترك الشمس في الحركة الظاهرية -اليومية- فهي تشرق من مشرق نصف الكرة الأرضي الذي نعيش فيه، وتمرّ في طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب، وعبورها من نصف النهار يشخّص الظهر الحقيقي -الزوال-.

وللشمس أيضاً حركة ظاهرية أخرى -سنوية- حول الأرض، بحيث إنّها تقترب من المشرق درجة واحدة كلّ يوم، وفي هذه الحركة تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّة واحدة كلّ عام، ومدار هذه الحركة يقع على صفحة «**دائرة البروج**»، ولهذه الحركة أهميّة عظمى في

علم الفلك، فظاهرة «**الاعتدالين**» و«**الانقلاب**» و«**الميل الكلّي**» كلّها مرتبطة بهذا العلم، وعلى أساس ذلك يحسب العام الشمسي.

علاوة على هذه الحركات الظاهرية، فإنّ للشمس حركة دورانية في المجرّة، فالشمس تنطلق بسرعة دورانية في الفضاء تعادل مليون ومئة وثلاثين ألف كيلومتر في الساعة! وفي داخل المجرّة فهي ليست ثابتة أيضاً، بل إنّها أيضاً تدور بسرعة تقارب إثنين وسبعين ألف كيلومتر في الساعة ضمن المجموعة النجمية المسمّاة «**الجاثي على ركبتيه**»[1].

وعدم علمنا بتلك الحركة السريعة للشمس هو بعد الأجرام السماوية، والذي هو المانع من تشخيص تلك الحركة الموضعية أيضاً.

دورة الحركة الوضعية للشمس على محورها تستغرق حدود الخمسة وعشرين يوما بلياليها[2].

2. تعبير ﴿تُدۡرِكَ﴾ و ﴿سَابِقُ﴾

إنّ التعبيرات القرآنية استعملت بدقّة متناهية لا يمكن الإحاطة بجميع أبعادها.

ففي الآيات أعلاه حينما تتحدّث عن الحركة الظاهرية للقمر والشمس خلال المسيرة الشهرية والسنوية تقول: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ إذ إنّ القمر ينهي مسيرته في شهر واحد بينما الشمس في عام كامل.

أمّا حينما تحدّثت عن الليل والنهار قالت: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾؛ لعدم وجود فاصلة بينهما ولتعاقبهما. فالتعابير غاية في الدقّة.

3. نظام النور والظلام في حياة البشر

تعرّضت الآيات أعلاه إلى موضوعين من أهمّ المواضيع المتعلّقة بحياة البشر. على أنّهما آيتان من آيات الله، وهما مسألة ظلمة الليل ومسألة الشمس ونورها.

---

(1) «الجاثي على ركبتيه»: مجموعة من النجوم التي تتشاكل فيما بينها لترسم صورة شخص جاث على ركبتيه، ومنه أخذت التسمية.

(2) أي إنّ الشمس في كلّ خمس وعشرين يوماً من أيّامنا تدور دورة واحدة حول نفسها، وقد شخصت هذه المسألة من مراقبة العلماء للبقع الموجودة على سطح الشمس، فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود كما كانت خلال هذه المدّة.

قلنا سابقاً: إنّ النور من ألطف وأكثر موجودات العالم المادّي بركة، وليس لإضاءتنا ومعيشتنا فقط، فكلّ حركة ونشاط مرتبط بنور الشمس: نزول قطرات المطر، نمو النباتات، تفتّح البراعم، نضوج الثمار والفواكه، خرير الجداول، تلوين مائدة الطعام بأنواع المواد الغذائية، وحتّى حركة عجلة المصانع العظيمة، وتوليد الطاقة الكهربائية، وأنواع المنتجات الصناعية، كلّها تعود في أصلها إلى هذا المنبع العظيم للطاقة؛ أي نور الشمس.

وخلاصة القول: إنّ جميع الطاقات على سطح الكرة الأرضية -عدا الطاقة الناجمة عن تفجير الذرّة- جميعها تستمدّ وجودها من نور الشمس، ولولا الأخير لخيّم الصمت والموت على كلّ مكان.

ظلمة الليل مع أنّها تذكر بالموت والفناء، فإنّها تعدّ من الأمور الحياتية الهامّة في حياة البشر، لأنّها تعدل نور الشمس وتؤثّر عميقا في راحة جسم وروح الإنسان، والمنع من المخاطر الناجمة عن تسلّط أشعّة الشمس بشكل متواصل ومستمر، بحيث لو لم يكن الليل عقيب النهار لارتفعت درجة الحرارة على سطح الأرض إلى درجة أنّ الأشياء جميعا تأخذ بالاشتعال والاحتراق، كذلك في القمر حيث الليالي والأيّام طويلة (كلّ ليلة هناك تعادل حوالي خمسة عشر يوماً بلياليها على الأرض، كذلك الحال بالنسبة للنهار) فحرارة النهار قاتلة، وبرودة مجمّدة. وعليه، فإنّ كلاً من النور والظلام آية إلهية عظيمة.

ناهيك عن أنّ النظام المتناهي الدقّة الذي يحكمهما، أدّى إلى تنظيم تأريخ حياة البشر، ذلك التأريخ الذي لولا وجوده لتفتتت الروابط الاجتماعية، وأصبحت الحياة بالنسبة إلى البشر أشبه بالمستحيل، وبذا فإنّ كلاً من النور والظلام آيتان إلهيتان من هذه الناحية أيضاً.

واللافت للنظر هنا هو قول القرآن الكريم: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، وهذا التعبير يدلّل على أنّ النهار خلق قبل الليل، والليل بعده تماماً، فلو أنّ أحداً نظر من خارج الكرة الأرضية فسيرى موجودين أسود وأبيض يدوران بشكل مرتّب حول الأرض، وفي مثل هذه الحركة الدائرية لا يمكن تصوّر القبل والبعد فيها.

ولكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الأرض التي نعيش عليها كانت يوماً ما جزءاً من الشمس، وفي ذلك الوقت لم يكن سوى النهار، ولا وجود للّيل، ثمّ بعد أن انفصلت الكرة الأرضية عن الشمس وابتعدت تكوّن لها ظلّ مخروطي الشكل من الجهة المخالفة للشمس، فكان الليل، الليل الذي أصبحت حركته بعد النهار. نعم، لو توجّهنا لكلّ ذلك لاتّضحت دقّة ولطافة هذا التعبير.

وكما قلنا سابقاً، فليس الشمس والقمر وحدهما يسبحان في هذا الفضاء المترامي، بل إنّ الليل والنهار أيضاً يسبحان حول الكرة الأرضية، وكلّ منهما له مدار ومسير دائري.

وقد ورد في روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السلام التصريح بأنّ الله سبحانه وتعالى خلق النهار قبل الليل.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال جواباً عن سؤال في حديث طويل: «**نعم، خلق النهار قبل الليل، والشمس والقمر والأرض قبل السماء**»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**فالنهار خلق قبل الليل، وفي قوله تعالى:** ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾**؛ أي قد سبقه النهار**»[2].

وورد المعنى نفسه عن الإمام الباقر عليه السلام حين قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ خلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة**»[3].

(1) نور الثقلين، الحويزي، ج4، ص387، ح55.
(2) المصدر نفسه، ح53.
(3) المصدر نفسه، ح54.

الآيات 41 إلى 44

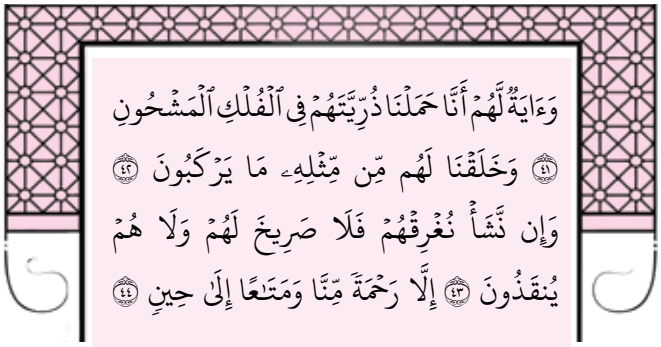

التّفسير

حركة السفن في البحار آية إلهيّة

على الرغم من أنّ بعض المفسّرين -أمثال القرطبي- اعتبر الآية الأولى من هذه الآيات من أعقد وأصعب آيات هذه السورة، إلّا أنّه وبتدقيق النظر في هذه الآيات وربطها بالآيات السابقة، يتّضح أن ليس هناك تعقيد في هذه الآيات؛ لأنّ الآيات السابقة تحدّثت عن دلالة قدرة الباري عزّ وجلّ في خلق الشمس والقمر والليل والنهار وكذلك الأرض وبركاتها، وفي هذه الآيات التي أمامنا يتحدّث الباري عزّ وجلّ عن البحار وقسم من بركات ونِعَم ومواهب البحار، يعني حركة السفن التجارية والسياحية على سطحها.

علاوة على أنّ حركة السفن في خضمّ المحيطات ليست بعيدة في الشبه عن حركة الكواكب السماوية في خضمّ المحيط الفضائي.

لذا، فإنّ الآيات الكريمة تقول أوّلا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

الضمير ﴿لَّهُمْ﴾ لا يعود فقط على مشركي مكّة، بل على جميع العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقة.

﴿ذُرِّيَّةَ﴾: كما يقول الراغب في مفرداته، أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان يقع على الصغار والكبار معاً عرفاً، ويستعمل للواحد والجمع.

وما تذكره الآية من حمل ذريّاتهم، وليس هم ربّما؛ لأنّ الأولاد هم أكثر حاجة لركوب مثل ذلك المركب السريع، بلحاظ أنّ الكبار أكثر استعداداً للسير على سواحل البحار وطي الطريق من هناك! فضلاً عن أنّ هذا التعبير أنسب لتحريك عواطفهم.

﴿مَشْحُونِ﴾ أي مملوء، إشارة إلى أنّ السفن لا تحملهم هم فقط، بل أموالهم وتجارتهم وأمتعتهم وما أهمّهم أيضاً.

وما قاله بعضهم من أن ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ إشارة إلى سفينة نوح، و﴿ذُرِّيَّةَ﴾ بمعنى الآباء من مادّة «**ذرأ**» بمعنى خلق، فيبدو بعيداً، إلّا إذا كان من قبيل ذكر المصداق البارز.

على كلّ حال، فإنّ حركة السفن والبواخر التي هي من أهمّ وأضخم وسائل الحمل والنقل البشري، وما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركّبات الأخرى، كلّ ذلك ناجم عن خصائص الماء ووزن الأجسام التي تصنع منها السفن، والطاقة التي تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية.

وكلّ هذه القوى والطاقات التي سخّرها الله للإنسان، كلّ واحدة منها وكلّها معا آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

ولكي لا يتوهّم أنّ المركّب الذي أعطاه الله للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

المراكب التي تسير على الأرض، أو في الهواء وتحمّل البشر وأثقالهم.

ومع أنّ بعضهم فسّر هذه الآية بخصوص «**الجمل**» الذي لقّب بـ «**سفينة الصحراء**»، وبعضهم الآخر ذهب إلى شمولية الآية لجميع الحيوانات، وبعضهم فسّرها بالطائرات والسفن الفضائية التي اخترعت في عصرنا الحالي تعبير ﴿خَلَقْنَا﴾ يشملها بلحاظ أنّ موادّها ووسائل صنعها خلقت مسبقاً، ولكن إطلاق تعبير الآية يعطي مفهوماً واسعاً يشمل جميع ما ذكر وكثيراً غيره.

في بعض آيات القرآن الكريم ورد مراراً الاقتران بين ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[2].

ولكن هذه الآيات أيضاً لا تنافي عمومية مفهوم الآية مورد البحث.

الآية التالية -لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرّض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة، فتقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو نأمر دوّامة بحرية واحدة ببلعهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة في كلّ اتّجاه بأمرنا، وإذا أردنا فنستطيع بسلبنا خاصّية الماء ونظام هبوب الريح وهدوء البحر وغير ذلك أن نجعل الاضطراب صفة عامّة تؤدّي إلى تدمير كلّ شيء، ولكنّنا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. وإذا وقعت بين الحين والحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلك لينتبهوا إلى أهميّة هذه النعمة الغامرة.

﴿صَرِيخَ﴾ من مادّة «**صرخ**» بمعنى الصياح. و﴿يُنقَذُونَ﴾ من مادّة «**نقذ**» بمعنى التخليص من ورطة.

وأخيراً تضيف الآية لتكمل الحديث فتقول: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

نعم، فهم لا يستطيعون النجاة بأيّة وسيلة، إلّا برحمتنا ولطفنا بهم.

﴿حِينٍ﴾ بمعنى «**وقت**» وهي في الآية أعلاه إشارة إلى نهاية حياة الإنسان وحلول أجله، وذهب بعضهم إلى أنّها تعني نهاية العالم بأسره.

نعم، فالأشخاص الذين ركبوا السفن -أيّاً كان نوعها وحجمها- يدركون عمق معنى هذه الآية، فإنّ أعظم السفن في العالم تكون كالقشّة حيال الأمواج البحرية الهائلة أو الطوفانات المفجعة للمحيطات، ولولا شمول الرحمة الإلهية فلا سبيل إلى نجاة أحد منهم إطلاقاً.

(1) سورة الزخرف، الآية 12.
(2) سورة غافر، الآية 80.

يريد الله سبحانه وتعالى بذلك الخيط الرفيع بين الموت والحياة أن يظهر قدرته العظيمة للإنسان، فلعلّ الضالّين عن سبيل الحقّ يعودون إلى الحقّ، ويتوجّهون إلى الله ويسلكون هذا الطريق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾

التّفسير

الإعراض عن جميع آيات الله

بعد أن كان الحديث في الآيات السابقة عن الآيات الإلهيّة في عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدّث عن ردّ فعل الكفّار المعاندين في مواجهة هذه الآيات الإلهيّة، وكذلك توضّح دعوة النّبي ﷺ لهم وإنذارهم بالعذاب الإلهي الأليم.

يفتتح هذا المقطع بالقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[1].

للمفسّرين أقوال عديدة حول ما هو معنى قوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾، منها: أنّ المقصود بـ ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ العقوبات الدنيوية التي أوردت الآيات السابقة نماذج منها، والمقصود بـ ﴿مَا خَلۡفَكُمۡ﴾ عقوبات الآخرة، وكأنّه يراد القول بأنّها خلفهم

(1) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ...﴾ جملة شرطية، وجزاؤها محذوف يستفاد من الآية اللاحقة، والتقدير: «وإذا قيل لهم اتّقوا ... أعرضوا عنه».

ولم تأتِ إليهم، وسوف تصل إليهم في يوم ما وتحيط بهم، والمقصود بـ «**التقوى**» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التي تؤدّي إلى وقوع هذه العقوبات، والدليل على ذلك أنّ التعبير بـ ﴿ٱتَّقُواْ﴾ يرد في القرآن إمّا عند ذكر الله سبحانه وتعالى أو عند ذكر يوم القيامة والعقوبات الإلهيّة، وهذان الذكران وجهان لحقيقة واحدة؛ إذ إنّ الاتّقاء من الله هو اتّقاء من عقوباته.

وذلك دليل على أنّ الآية تشير إلى الاتقاء من عذاب الله ومجازاته في الدنيا وفي الآخرة.

ومن هذه التّفسيرات أيضاً عكس ما ورد في التّفسير الأوّل، وهو أنّ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ تعني عقوبات الآخرة و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ تعني عذاب الدنيا؛ لأنّ الآخرة أمامنا (وهذا التّفسير لا يختلف كثيراً عن الأوّل من حيث النتائج).

وذهب آخرون إلى أنّ المقصود من ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الذنوب التي ارتكبت سابقاً، فتكون التقوى منها بالتوبة وجبران ما تلف بواسطتها، و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ الذنوب التي سترتكب لاحقاً.

وبعضهم يرى بأنّ ﴿بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الذنوب الظاهرة، و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ الذنوب الباطنة والخفيّة.

وقال بعضهم الآخر: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ إشارة إلى أنواع العذاب في الدنيا، و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ إشارة إلى الموت (والحال أنّ الموت ليس ممّا يُتّقى منه!).

وبعضهم- كصاحب تفسير «**في ظلال القرآن**»- اعتبر هذين التعبيرين كناية عن إحاطة موجبات الغضب والعذاب الإلهي التي تحيط بالكافر من كلّ جانب.

والآلوسي في «**روح المعاني**» والفخر الرازي في «**التّفسير الكبير**»، كلّ منهما ذكر احتمالات متعدّدة، ذكرنا قسماً منها.

والعلّامة الطباطبائي في «**الميزان**» يرى أنّ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الشرك والمعاصي في الحياة الدنيا، و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ العذاب في الآخرة[1]. في حين أنّ ظاهر الآية هو أنّ كلا الاثنين

(1) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج17، ص96، (ذيل الآيات مورد البحث).

من جنس واحد، وليس بينهما سوى التفاوت الزمني، لا أنّ إحداهما إشارة إلى الشرك والذنوب، والأخرى إشارة إلى العقوبات الواقعة نتيجة ذلك.

على كلّ حال، فأحسن تفسير لهذه الجملة هو ما ذكرناه أوّلاً، وآيات القرآن المختلفة شاهد على ذلك أيضاً، وهو أنّ المقصود من ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ هو عقوبات الدنيا و﴿مَا خَلْفَكُمْ﴾ عقوبات الآخرة.

الآية التالية تؤكّد المعنى نفسه، وتشير إلى لجاجة هؤلاء الكفّار وإعراضهم عن آيات الله وتعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

فلا الآيات الأنفسية تؤثّر فيهم، ولا الآفاقية، ولا التهديد والإنذار، ولا البشارة والتطمين بالرحمة الإلهيّة، لا يتقبّلون منطق العقل ولا أمر العواطف والفطرة، فهم مبتلون بالعمى الكلّي بحيث لا يتمكّنون حتّى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، وحتّى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمة الليل وشمس الظهيرة.

ثمّ يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمّة لعنادهم وإعراضهم، فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ذلك المنطق الضعيف الذي يتمسّك به الأنانيون والبخلاء في كلّ عصر وزمان ويقولون: إنّ فلاناً أصبح فقيراً بسبب عمل ارتكبه وأدّى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف الله ورحمته. وعليه، فليس فقره ولا غنانا كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ الدنيا إنّما هي دار امتحان وابتلاء، والله سبحانه وتعالى إنّما يمتحن بعضهم بالفقر كما يمتحن بعضهم الآخر بالغنى والثروة، وربّما يضع الله الإنسان وفي وقتين مختلفين في بوتقة الامتحان الغنى والفقر، وينظر هل يؤدّي الأمانة حال فقره ويتمتّع بمناعة الطبع ويلج مراتب الشكر اللائقة، أم أنّه يطأ كلّ ذلك بقدمه ويمرّ؟ وفي حال الغنى هل ينفق ممّا تفضّل الله به عليه، أم لا؟

وعلى الرغم من أنّ بعضهم قد حصر الآية من حيث التطبيق في مجموعة خاصّة كاليهود، أو المشركين في مكّة، أو جميع الملاحدة الذين أنكروا الأديان الإلهيّة، ولكن يبدو أنّ للآية مفهوماً عامّاً يمكن أن تكون له مصاديق في كلّ عصر وزمان، وإن كان مصداقها حين نزولها هم اليهود أو المشركون فتلك ذريعة عامّة يتشبّثون بها على مرّ العصور، وهي قولهم: إذا كان الله هو الرازق، إذاً لماذا تريدون منّا أن نعطي الفقراء من أموالنا؟ وإذا كان الله يريد أن يرى هؤلاء محرومين، فلماذا تريدون منّا إغناء من أراد الله حرمانه؟ غافلين عن أنّ نظام التكوين قد يوجب شيئاً، ويوجب نظام التشريع شيئاً غيره.

فنظام التكوين -بإرادة الله- أوجب أن تكون الأرض بجميع مواهبها وعطاياها مسخّرة للبشر، وأن يعطي البشر حريّة انتخاب الأعمال لطيّ طريق تكاملهم، وفي الوقت نفسه خلق الغرائز التي تتنازع الإنسان من كلّ جانب.

ونظام التشريع أوجب قوانين خاصّة للسيطرة على الغرائز وتهذيب النفوس، وتربية الإنسان عن طريق الإيثار والتضحية والتسامح والإنفاق، وذلك الإنسان الذي لديه الأهلية والاستعداد لأن يكون خليفة الله في الأرض، إنّما يبلغ ذلك المقام الرفيع من هذا الطريق، فبالزكاة تطهر النفوس، وبالإنفاق ينتزع البخل من القلوب، ويتحقّق التكافؤ، وتقلّ الفواصل الطبقية التي تفرز آلاف العلل والمفاسد في المجتمعات.

وذلك تماماً كما يقول شخص: لماذا ندرس؟ أو لماذا نعلّم غيرنا؟ فلو شاء الله سبحانه وتعالى لأعطى العلم للجميع، فلا تكون هنالك حاجة إلى التعلّم! فهل يقبل ذلك عاقل[1]؟

جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتي ورد التأكيد فيها على صفة الكفر، في حين يمكن أن يكتفي بالضمير، إشارة إلى أنّ هذا المنطق الخرافيّ والتعلّل إنّما ينبع من الكفر! ولسان حال المؤمنين بقولهم: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، إشارة إلى أنّ المالك الأصليّ في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، وإن كانت تلك الأموال أمانة في أيدينا أو أيديكم لأيّام، ويا لهم من بخلاء

(1) بعض المفسّرين احتمل التّفسير التالي وهو: أنّ العرب كانوا مشهورين بالضيافة في ذلك الزمان، وما كانوا يمتنعون عن الإنفاق، وكان هدف الكفّار هو الاستهزاء بالمؤمنين الذين كانوا ينسبون الأشياء والأمور جميعها إلى المشيئة الإلهية، فكانوا يقولون لهم: إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يغني الفقراء فما الحاجة إلى إنفاقنا، ولكن يبدو أنّ التّفسير الذي أوردناه هو الأنسب (راجع البيان، وتفسير القرطبي، وروح المعاني).

أولئك الذين لم يكونوا حاضرين لأن يحوّلوا المال إلى آخرين بأمر صاحب المال؟! أمّا جملة: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فلتفسيرها توجد احتمالات ثلاثة:

الأوّل: أنّها تتمّة ما قاله الكفّار للمؤمنين.

الثاني: أنّه كلام الله سبحانه وتعالى يخاطب به الكفّار.

الثالث: أنّه تتمّة ما قاله المؤمنون للكفّار.

ولكن التّفسير الأوّل هو الأنسب، لأنّه يتّصل مباشرة بحديث الكفّار السابق، وفي الحقيقة إنّهم يريدون معاملة المؤمنين بالمثل ونسبتهم إلى الضلال المبين.

الآيات48 إلى 53

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

التّفسير

صيحة النشور!

بعد ذكر المنطق الأجوف والذرائع التي تشبّث بها الكفّار في مسألة الإنفاق في الآيات السابقة، تتعرّض هذه الآيات إلى الحديث عن استهزائهم بالقيامة، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافاً إلى أنّها تكمل بحوث التوحيد التي مرّت في الآيات السابقة بالبحث حول المعاد.

تقول الآية الكريمة الأولى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنّكم لستم صادقين في حديثكم.

الآية التالية تردّ على هذا التساؤل المقرون بالسخرية بجواب قاطع حازم، وتخبرهم بأنّ

قيام الساعة ليس بالأمر المعقّد أو المشكل بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

فكلّ ما يقع هو صيحة سماوية كافية لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقّين من الناس على سطح الأرض بلحظة واحدة وهم على حالهم، وتنتهي هذه الحياة المليئة بالصخب والدعاوى والمعارك والحروب، ليتخلّف وراءها صمت مطبق، وتخلو الأرض من أي صوت أو إزعاج.

وفي حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «**تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتّى تقوم**»[1].

جملة ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ هنا بمعنى (ما ينتظرون)، فكما يقول (الراغب) في مفرداته: «**النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمّل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرويّة، والنظر الانتظار**».

﴿صَيْحَةً﴾ صاح: رفع الصوت، وأصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت، وصيح الثوب كذلك، ويقال: بأرض فلان شجر قد صاح، إذا طال فتبيّن للناظر لطوله، ودلّ على نفسه بصوته.

﴿يَخِصِّمُونَ﴾ من مادّة «**خصم**» بمعنى النزاع.

أمّا فيم كانوا يختصمون؟ لم تذكر الآية ذلك، ولكن من الواضح أنّ المقصود هو التخاصم على أمر الدنيا والأمور المعيشية الأخرى، ولكن بعضهم يرى: إنّه تخاصم في أمر «**المعاد**»، والمعنى الأوّل أنسب على ما يبدو، وإن كان اعتبار شمول الآية لكلا المعنيين، وأي نوع من النزاع والخصومة ليس ببعيد.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ الضمائر المتعدّدة في الآية جميعها تعود على مشركي مكّة الذين كانوا يشكّكون في أمر المعاد، ويستهزئون بذلك بقولهم: متى تقوم الساعة؟

(1) مجمع البيان، الطبرسي، ج4، ص427. وذكرت هذه الرواية بتفاوت قليل في تفسير «القرطبي» و«روح المعاني» وغيرهما.

ولكن المسلّم به أنّ الآية لا تقصد أشخاص هؤلاء، بل نوعهم «**نوع البشر الغافلين عن أمر المعاد**» لأنّهم ماتوا ولم يسمعوا تلك الصيحة السماوية أبداً (تأمّل بدقّة!). على كلّ حال، فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير والحازم إنّما أراد تنبيههم إلى أنّ القيامة ستأتي وبشكل غير متوقّع، وهذا أوّلاً. وأمّا ثانياً فإنّ قيام الساعة ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون ويتنازعون فيه، فبمجرّد صيحة واحدة ينتهي كلّ شيء وتنتهي الدنيا بأسرها.

لذا فهو تعالى يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

في العادة فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثة ويحسّ بعدها بقرب أجله، يحاول جاهداً أن يوصل نفسه إلى أهله ومنزله ويستقرّ بين عياله، ثمّ يقوم بإنجاز بعض الأمور المعلّقة، ويعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصيّة أو غير ذلك. ويوصي بإنجاز بعض الأمور الأخرى.

ولكن هل تترك الصيحة السماوية فرصة لأحد؟ ولو سنحت الفرصة فرضاً فهل بقي أحد حيّاً ليستمع الوصيّة؟ أو يجتمع الأولاد مع أمّهم على سرير الأب -مثلاً- ويحتضنونه ويحتضنهم لكي يسلم الروح بطمأنينة؟ لا أبداً، فلا إمكان لأي من هذه الأمور.

وما نلاحظه من تنكير التوصية في التعبير القرآني هنا إنّما هو إشارة إلى أنّ الفرصة لا تسنح حتّى لوصية صغيرة أيضاً.

ثمّ تشير الآيات إلى مرحلة أخرى، مرحلة الحياة بعد الموت. فتقول: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

التراب والعظام الرميم تلبس الحياة من جديد، وتنتفض من القبر بشراً سويّاً، ليحضر المحاكمة والحساب في تلك المحكمة العظيمة المهولة، وكما أنّهم ماتوا جميعاً بصيحة واحدة، فبنفخة واحدة يبعثون أحياء من جديد، فلا هلاكهم يشكّل عقبة أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، ولا حياتهم كذلك، تماماً كما هو الحال في جمع الجنود في الجيوش، بنفخة بوق واحدة ينهضون جميعاً من فرشهم ويخرجون من خيمهم، ويقفون في صفّ واحد، وإحياء الموتى وبعثهم بالنسبة إلى الله سبحانه بهذه البساطة والسرعة.

﴿أَجۡدَاثِ﴾ جمع «**جدث**» وهو القبر، والتعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبة جسمانية بالإضافة إلى الجنبة الروحية، وأنّ الجسد يعاد بناؤه جديداً من نفس المواد السابقة.

واستخدام صيغة الماضي في الفعل «**نفخ**» إشارة إلى عدم وجود أدنى شكّ في وقوع مثل هذا الأمر، وكأنّه لثباته وحتميته قد وقع فعلاً.

﴿يَنسِلُونَ﴾ من مادّة «**نسل**» والنسل الانفصال عن الشيء- كما يقول الراغب في المفردات ويضيف- يقال: نسل الوبر عن البعير والقميص عن الإنسان، و...

ومنه نسل إذا عدا، والنسل الولد لكونه ناسلاً عن أبيه.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ كأنّها تلميح إلى أنّ ربوبية ومالكية وتربية الله كلّها توجب أن يكون هناك حساب وكتاب ومعاد.

وعلى كلّ حال، فإنّه يستفاد من الآيات القرآنية أنّ نهاية هذا العالم وبداية العالم الآخر يكون كلاهما على شكل حركة عنيفة وغير متوقّعة، وسوف نتعرّض إلى تفصيل هذا الموضوع في تفسير الآية (68) من سورة الزمر إن شاء الله.

تضيف الآية التالية: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

نعم، فإنّ المشهد مهول ومذهل إلى درجة أنّ الإنسان ينسى جميع الخرافات والأباطيل ولا يتمكّن إلّا من الاعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآية تصوّر القبور «**بالمراقد**» والنهوض من القبور (بالبعث) كما ورد في الحديث المعروف: «**كما تنامون تموتون، وكما تستيقظون تبعثون**».

ففي البدء يستغربون انبعاثهم، ويتساءلون عمّن بعثهم من مرقدهم؟ ولكنّهم يلتفتون بسرعة ويتذكّرون بأنّ أنبياء الله الصادقين، وعدوهم بمثل هذا اليوم، فيجيبون أنفسهم قائلين: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ولكن واأسفاه إنّنا كنّا نستهزئ بكلّ ذلك! وعليه، فإنّ هذه الجملة هي بقيّة حديث هؤلاء المتكبّرين الكفرة بالمعاد والبعث، ولكن

بعضهم ذهب إلى أنّ حديث الملائكة أو المؤمنين، وذلك على ما يبدو خلاف ظاهر الآية، ولا داعي ولا ضرورة له، لأنّ اعتراف الكفّار والمنكرين للمعاد في ذلك اليوم لا ينحصر بهذه الآية، ففي الآية (97) من سورة الأنبياء ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1].

وعلى كلّ حال، فإنّ التعبير بـ «**مرقد**»[2] يوضّح أنّهم في عالم البرزخ كانوا بحالة شبيهة بالنوم العميق، وكما ذكرنا في تفسير الآية (100) من سورة المؤمنون، فإنّ البرزخ بالنسبة إلى أكثر الناس الذين هم على الوسط من الإيمان أو الكفر هو حالة شبيهة بالنوم، وفي حال المؤمنين أصحاب المقامات الرفيعة، أو الكفّار الموغلين في الكفر والجحود، فإنّ البرزخ بالنسبة إليهم عالم واضح المعالم، وهم فيه أيقاظ يهنأون في النعيم أو يصطرخون في العذاب.

احتمل بعضهم أيضاً أنّ هول ودهشة القيامة شديدان إلى درجة أنّ العذاب في البرزخ يكون شبه النوم بالنسبة إلى ما يرونه في القيامة.

ثمّ تقول الآية لبيان سرعة النفخة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وعليه، فإحياء الموتى وبعثهم من القبور وإحضارهم في محكمة العدل الإلهي لا يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحة الأولى للموت، والصيحة الثانية للحياة والحضور في محكمة العدل الإلهي.

واستخدام تعبير «**الصيحة**» والتأكيد عليها بـ ﴿وَٰحِدَةً﴾ وكذلك التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ في مثل هذه الموارد، إنّما هو للإشارة إلى وقوع غير المتوقّع، والتعبير بـ ﴿هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بصيغة الجملة الاسمية دليل على الوقوع السريع لهذا المقطع من القيامة.

واللهجة الحازمة لهذه الآيات تترك أعمق الأثر في القلوب، وكأن هذه الصيحة تقول: يا أيّها الناس النائمون، أيّتها الأتربة المتناثرة، أيّتها العظام المهترئة! انهضوا، انهضوا واستعدّوا للحساب والجزاء... فما أجمل الآيات القرآنية! وما أروع إنذاراتها المعبّرة!

(1) سورة الأنبياء، الآية 97.

(2) يأتي تارة بمعنى اسم مكان، وأخرى اسم للنوم، أي مصدر ميمي.

فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨

التّفسير

أصحاب الجنّة فاكهون!

هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب في المحشر، ثمّ ينتقل في الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصلحاء والكفّار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الأولى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾.

فلا ينقص من أجر وثواب أحد شيئاً، ولا يزاد على عقوبة أحد شيئاً، ولن يكون هنالك أدنى ظلم أو اضطهاد لأحد حتّى بمقدار رأس الإبرة.

ثمّ تنتقل الآية لتوضّح تلك الحقيقة وتعطي دليلا حيّا عليها فتقول: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

إنّ ظاهر الآية -ومن دون تقدير مضمر- يهدف إلى القول بأنّ جزاءكم جميعاً هو نفس أعمالكم، فأي عدالة أفضل وأعلى من هذه العدالة؟! وبعبارة أخرى: فإنّ الأعمال الحسنة والسيّئة التي قمتم بها في هذه الدنيا سترافقكم في ذلك العالم أيضاً، ونفس تلك الأعمال

ستتجسّد هناك وترافقكم في جميع مراحل الآخرة، في المحشر وبعد نهاية الحساب.

فهل أنّ تسليم حاصل عمل إنسان إليه أمر مخالف للعدالة؟

وهل أنّ تجسيد الأعمال وقرنها بعاملها ظلم؟

ومن هنا يتّضح أن لا معنى للظلم أساساً في مشهد يوم القيامة، وإذا كان يحدث في الدنيا بين البشر أن تتحقّق العدالة حيناً ويقع الظلم أحياناً كثيرة، فذلك لعدم إمكان ربط الأعمال بفاعليها.

جمع من المفسّرين تصوروا أنّ الجملة الأخيرة أعلاه تتحدّث عن الكفّار والمسيئين الذين سيرون عقاباً على قدر أعمالهم، دون أن تشمل المؤمنين، بلحاظ أنّ الله سبحانه وتعالى قد جزاهم وأثابهم بأضعاف ما يعادل أعمالهم.

ولكن بملاحظة ما يلي ينحلّ هذا الاشتباه، وهو أنّ الحديث هنا هو حديث عن العدالة في الثواب والعقاب وأخذ الجزاء حسب الاستحقاق، وهذا لا ينافي أنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يزيد المؤمنين من فضله، فهذه مسألة «**تفضل**» وتلك مسألة «**استحقاق**».

ثمّ تنتقل الآيات لتتعرّض إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، وقبل كلّ شيء تشير إلى مسألة الطمأنينة وراحة البال فتقول: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾.

﴿شُغُلٖ﴾: -على وزن سرر- و«**شغل**» -على وزن لطف-: كليهما بمعنى العارض الذي يذهل الإنسان ويصرفه عن سواه، سواء كان ممّا يبعث على المسرّة أو الحزن، ولكن لإلحاقه كلمة ﴿فَٰكِهُونَ﴾ التي هي جمع «**فاكه**» وهو المسرور الفرح الضاحك، يمكن استنتاج أنّ المعنى إشارة إلى الإنسان المشغول بنفسه والمنصرف تماماً عن التفكير في أيّ قلق أو ترقّب، والغارق في السرور والسعادة والنشاط بشكل لا يترك أي مجال للغمّ والحسرة أن تعكّر عليه صفوه، وحتّى أنّه ينسى تماماً هول قيام القيامة والحضور في محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التي لولا نسيانها فإنّها حتماً ستلقي بظلالها الثقيلة من الغمّ والقلق على القلب، وبناء على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبة على انشغال الذهن

بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر[1].

وبعد التعرّض إلى نعمة الطمأنينة وراحة البال التي هي أساس جميع النعم الأخرى وشرط الاستفادة من جميع المواهب والنعم الإلهية الأخرى، ينتقل إلى ذكر بقيّة النعم فيقول تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾[2].

«**أزواج**» تشير إلى الزوجة التي يعطيها الله في الجنّة، أو الزوجة المؤمنة التي كانت معه في الدنيا.

وأمّا ما احتمله بعضهم من أنّها بمعنى «**النظائر**» كما في الآية (22) من سورة الصافات ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾[3] فيبدو بعيداً. خصوصاً أنّ «**أرائك**» جمع «**أريكة**» وهي الحجلة على السرير، كما يقول أرباب اللغة[4].

التعبير بـ «**ظلال**» إشارة إلى أنّ أشجار الجنّة تظلّل الأسرة والتخوت التي يجلس عليها المؤمنون في الجنّة، أو إشارة إلى ظلال قصورهم، وكلّ ذلك يدلّل على وجود الشمس هناك، ولكنّها ليست شمساً مؤذية. نعم، فإنّ لهم في ذلك الظلّ الملائم لأشجار الجنّة سروراً ونشاطاً عظيمين.

إضافة إلى ذلك فإنّ ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.

يستفاد من آيات القرآن الأخرى أنّ غذاء أهل الجنّة ليس الفاكهة فقط، ولكن تعبير الآية يدلّل على أنّ الفاكهة -وهي فاكهة مخصوصة تختلف كثيراً عن فاكهة الدنيا- هي أعلى غذاء لهم، كما أنّ الفاكهة في الدنيا - كما يقول المتخصّصون- أفضل وأعلى غذاء للإنسان.

---

(1) يرى «الراغب» في مفرداته بأنّ «فاكهة» تطلق على كلّ أنواع الثمار والفواكه، و«فاكه» الحديث الذي يأنس به الإنسان وينشغل به عن غيره. ويرى «ابن منظور» في لسان العرب أنّ «فكاه» بمعنى المزاح، و«فاكه» يطلق على الإنسان المرح.

(2) هناك احتمالات عديدة في إعراب الجملة، وأفضلها أنّ «هم» مبتدأ، و«متكئون» خبر، و«على الأرائك» متعلّق به، و«في ظلال» متعلّق به أيضاً أو متعلّق بمحذوف.

(3) سورة الصافات، الآية 22.

(4) لسان العرب - مفردات الراغب - مجمع البيان - القرطبي - روح المعاني - وتفاسير أخرى.

﴿يَدَّعُونَ﴾ أي يطلبون، والمعنى أنّ كلّ ما يطلبونه ويتمنّونه يحصلون عليه، فما يتمنّوه من شيء يحصل ويتحقّق على الفور.

يقول العلّامة الطبرسي في مجمع البيان: العرب يستخدمون هذا التعبير في حالة التمنّي، فيقول: «**ادع عليّ ما شئت**» أي تمنّ عليّ ما شئت...

وعليه، فإنّ كلّ ما يخطر على بال الإنسان وما لا يخطر من المواهب والنعم الإلهية موجود هناك معدّ ومهيّأ، والله عنده حسن الثواب.

وأهمّ من كلّ ذلك، المواهب المعنوية التي أشارت إليها آخر آية بقولها: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[1].

هذا النداء الذي تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبّة الله، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التي لا يرقى إليها وصف ولا تعادلها أيّة نعمة أخرى. نعم، فسماع نداء المحبوب، النداء الندي بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنّة بالحبور ... الحبور الذي تعادل اللحظة منه جميع ما في الدنيا، بل ويفيض عليه.

ففي رواية عن النّبي ﷺ أنّه قال: «**بينا أهل الجنّة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنّة، وذلك قول الله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾، **قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم**»[2].

نعم، فإنّ جذبة مشاهدة المحبوب، ورؤية لطفه، تبعث اللذّة والشوق في النفس بحيث إنّ لحظة واحدة من تلك المشاهدة العظيمة لا يمكن مقارنتها بأيّة نعمة، بل بالعالم أجمع، وعشّاق رؤيته والنظر إليه هائمون في ذلك إلى درجة أنّه لو قطعت عنهم

(1) اختلف حول إعراب «قولًا» وأنسب ما ذكر هو اعتبارها (مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره «يقول قولًا».
(2) تفسير روح المعاني، الآلوسي، ج23، ص35.

تلك الإفاضة المعنوية فإنّهم يحسّون بالحسرة والألم، وكما ورد في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام: «**لو حجبت عنه ساعة لمتّ**»[1].

اللافت للنظر أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ سلام الله الذي ينثره على المؤمنين في الجنّة، هو سلام مستقيم بلا واسطة، سلام منه تعالى، وأي سلام ذلك الذي يمثّل رحمته الخاصّة! أي إنّه ينبعث من مقام رحيميته وجميع ألطافه وكراماته مجموعة فيه، ويا لها من نعمة عظيمة!

ملاحظة

أنواع «السلام» المنثور على أهل الجنّة

الجنّة هي «**دار السلام**» كما ورد في الآية (25) من سورة يونس حيث نقرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[2].

وأهل الجنّة الذين يسكنون هناك، يقابلون بسلام الملائكة حينما يدخلون عليهم الجنّة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[3].

ويناديهم ساكنو الأعراف ويسلّمون عليهم: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[4]، وعندما يدخلون الجنّة يقابلون بسلام وتحيّة الملائكة.

وحينما تقبض الأرواح يتلقّى المؤمن هذا السلام من ملائكة الموت: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[5]. ويسلّم بعضهم على بعض ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾[6]. وأخيراً، أسمى وأعظم سلام هو سلام الله عزّ وجلّ ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

(1) روح البيان، مصطفى الاستانبولي، ج7، ص416.
(2) سورة يونس، الآية 25.
(3) سورة الرعد، الآيتان 23-24.
(4) سورة الأعراف، الآية 46.
(5) سورة النحل، الآية 32.
(6) سورة إبراهيم، الآية 23.

الخلاصة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[1]. **والسلام ليس لفظاً فحسب، بل سلام يؤدّي إلى خلق الهدوء والسلامة، وينفذ في أعماق الروح الإنسانية ويغمرها بالهدوء والسلام.**

(1) سورة الواقعة، الآية 26.

الآيات 59 إلى 62

وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ
إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ
جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾

التّفسير

لماذا عبدتم الشيطان؟!

مرّ في الآيات السابقة جانب من المصير المشوّق لأهل الجنّة، وفي هذه الآيات مورد البحث جانب بئيس من مصير أهل النار وعبدة الشيطان.

أوّلا: يخاطبون في ذلك اليوم خطابا تحقيريا ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

فأنتم ربّما دخلتم في صفوف المؤمنين في الدنيا وتلونتم بلونهم تارة، واستفدتم من حيثيتهم واعتبارهم، أمّا اليوم فامتازوا عنهم وأظهروا بشكلكم الأصلي الحقيقي.

هذا في الحقيقة هو تحقّق للوعد الإلهي الوارد في الآية (28) من سورة ص، حيث يقول الباري عزّ وجلّ: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾[1].

(1) سورة ص، الآية 28.

وعلى كلّ حال، فظاهر الآية هو التمييز في العرض بين المجرمين والمؤمنين، وإن كان بعض المفسّرين قد احتمل احتمالات أخرى من جملتها: تفريق صفوف المجرمين أنفسهم إلى مجموعات فيما بينهم، أو انفصال المجرمين عن شفعائهم ومعبوداتهم، أو انفصال المجرمين كلّ واحد عن الآخر، بحيث يكون ذلك العذاب الناتج عن الفراق مضافاً على عذاب الحريق في جهنّم.

ولكن شمولية الخطاب لجميع المجرمين، ومحتوى جملة ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ تقوّي المعنى الأوّل الذي أشرنا إليه.

الآية التالية تشير إلى لوم الله تعالى وتوبيخه المجرمين في يوم القيامة قائلاً: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

إنّ هذا العهد الإلهي أخذ على الإنسان من طرق مختلفة، وكرّر على مسمعه مرّات ومرّات: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1]، جرى هذا التحذير وبشكل متكرّر على لسان الأنبياء والرسل: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[2].

وكذلك في الآية (168) من سورة البقرة نقرأ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[3].

ومن جانب آخر، فإنّ هذا العهد أخذ على الإنسان في عالم التكوين، وبلسان إعطاء العقل له، إذ إنّ الدلائل العقلية تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل وأخرجه من الجنّة، وأقسم على إغواء أبنائه من بعده.

ومن جانب ثالث، فقد أخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهيّة للناس على التوحيد، وانحصار الطاعة في الله سبحانه، وبهذا لم تتحقّق التوصية الإلهية هذه بلسان

(1) سورة الأعراف، الآية 27.
(2) سورة الزخرف، الآية 62.
(3) سورة البقرة، الآية 168.

واحد، بل بعدّة ألسنة وأساليب، وأمضى هذا العهد والميثاق.

والجدير بالملاحظة أيضاً أنّ «**العبادة**» الواردة الإشارة إليها في جملة ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بمعنى «**الطاعة**»، لأنّ العبادة لا تنحصر بمعنى الركوع والسجود فقط، بل إنّ من مصاديقها الطاعة. كما ورد في الآية (47) من سورة المؤمنون: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[1] وفي الآية (31) من التوبة نقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾[2].

والجميل أنّه ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تعليقاً على الآية بقوله: «**أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضا أنّه قال: «**من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده**»[4].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان**»[5].

الآية التالية تأكيد أشدّ وبيان لوظيفة بني آدم، تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ إنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه!؟ هذا من جانب.

ومن جانب آخر، أخذ عليه العهد بطاعة الله سبحانه وتعالى، لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم، وهذا في الحقيقة أعظم محرّك للبشر، لأنّ الإنسان -مثلاً- لو كان في وسط صحراء قاحلة محرقة، وكانت حياته وحياة عياله في معرض خطر قطّاع الطرق والضواري،

(1) سورة المؤمنون، الآية 47.
(2) سورة التوبة، الآية 31.
(3) وسائل الشيعة، الحرّ العاملي، ج18، ص89، ح1.
(4) المصدر نفسه، ج18، ص91، ح8 و9.
(5) المصدر نفسه.

فأهمّ ما يفكّر به هو العثور على الطريق المستقيم الآمن الذي يؤدّي إلى المقصد، الطريق السريع والأسهل للوصول إلى منزل النجاة.

ويستفاد كذلك من هذا التعبير ضمناً بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ إنّ الطريق لا يرسم لأحد إلّا لمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

وللتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًّا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾.

ألا ترَون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أي مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟ آثار مدنهم المدمّرة أمام أعينكم، والعاقبة المؤلمة التي وصلوا إليها واضحة لكلّ من يمتلك القليل من التعقّل والتفكّر.

إذاً، لماذا أنتم غير جادّين في معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات ومرّات؟

ولا زلتم تتّخذونه صديقاً، بل قائداً ووليّاً وإماماً! «**الجِبِلّ**» الجماعة، تشبيهاً بالجبل في العظم (كما يقول الراغب في مفرداته).

و﴿كَثِيرًّا﴾ للتأكيد على كثرة من اتّبع الشيطان من كافّة المستويات الاجتماعية في كلّ مجتمع.

ذكر بعضهم أنّ «**الجبلّ**» بحدود عشرة آلاف نفر، أو أكثر، وما دون ذلك لا يكون جبلاً[1]، ولكن بعضهم الآخر لم يلتزم بتلك الأرقام[2].

وعلى كلّ حال، فإنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّة من عدوّ خطر كهذا، لا يتورّع عن أي شيء، ولا يرحم أي إنسان أبداً، وقرابينه في كلّ زاوية ومكان هلكى صرعى، فلا ينبغي له أن يغفل عنه طرفة عين أبداً، ولنقرأ ما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**فاحذروا -عبادَ الله- عدوَّ الله، أن يعديكم بدائه، وأن يستفزّكم**

(1) انظر تفسير روح المعاني والفخر الرازي.
(2) المصدر نفسه.

بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، فقال: ربّ بما أغويتني لازينّن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين»[1].

(1) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الامام علي عليه السلام، خطبة 192 (القاصعة).

الآيات 63 إلى 68

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

التّفسير

يوم تسكت الألسن وتشهد الأعضاء!

تعرّضت الآيات السابقة، إلى قسم من التوبيخات والتقريعات الإلهيّة وإلى مخاطبته سبحانه المجرمين في يوم القيامة.

هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضاً.

نعم، ففي ذلك اليوم وحينما تظهر جهنّم للمجرمين الكافرين يذكّرهم الله بوعده، والآية تشير إلى ذلك فتقول: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فقد بعث إليكم الأنبياء واحداً بعد واحد، وحذّروكم من مثل هذا اليوم ومن مثل هذه النار، ولكنّكم لم تأخذوا أقوالهم إلّا على محمل السخرية والاستهزاء ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[1].

(1) «اصلوها» من (صلا) أصل الصّلي إيقاد النار، ويقال صلي بالنار وبكذا، أي بلي بها واصطلى بها.

ثمّ يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

نعم، ففي ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته وميوله، فهي بأجمعها تتخلّى عن امتثال أمره وتستسلم لأمر الله سبحانه، ويا لها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التي شهودها نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التي كانت الوسائل لارتكاب المعاصي والذنوب.

ويحتمل أن تكون شهادة الأعضاء، بسبب أنّ المجرمين حينما يرون بأنّهم سيصلون جهنّم جزاء أعمالهم، يميلون إلى إنكار ما ارتكبوا ظنّاً منهم أنّه يمكن الإفلات بإخفاء الحقائق والإنكار، إلّا أنّ الأعضاء تبدأ هنا بالشهادة، الأمر الذي يثير عجب أولئك المجرمين ووحشتهم ويغلق عليهم جميع طرق الفرار والخلاص.

أمّا عن كيفية نطق تلك الأعضاء، فثمّة تفسيرات واحتمالات عديدة:

1. إنّ الله سبحانه وتعالى يجعل في كلّ واحد من تلك الأعضاء القدرة على التكلّم والشعور، وهي تقوم بنقل الحقيقة بصدق، وما هو العجب في ذلك؟ فمن جعل في قطعة من اللحم المسمّاة «**لسان**» أو «**مخ الإنسان**» القدرة على النطق، يستطيع أن يجعل هذه القدرة في سائر أعضاء البدن أيضاً.

2. أنّ تلك الأعضاء لا تعطي الإدراك والشعور، ولكن الله سبحانه وتعالى ينطقها، وفي الحقيقة فإنّ تلك الأعضاء ستكون محلاً لظهور الكلام، وانكشاف الحقائق بإذن الله.

3. أنّ أعضاء البدن الإنساني تحتفظ بآثار الأعمال التي قامت بها في الدنيا، إذ إنّ أي عمل في هذه الدنيا لا يفني، بل إنّ آثاره ستبقى على كلّ عضو من البدن، وفي الفضاء المحيط بها، وفي ذلك اليوم الذي هو يوم الظهور والتجلّي، ستظهر هذه الآثار على اليد والقدم وسائر الأعضاء، وظهور تلك الآثار هو منزلة الشهادة.

وهذا تماماً كما يرد في لغتنا المعاصرة حينما نقول: «**عينك تشهد على سهرك**»، أو «**الجدران تبكي صاحب الدار**».

وعلى كلّ حال، فإنّ من المسلّمات شهادة الأعضاء في يوم القيامة، ولكن هل أنّ كلّ عضو يكشف عن فعله فحسب، أو يكشف عن كلّ الأعمال؟ فلا شكّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب، لذا فإنّ الآيات القرآنية الكريمة الأخرى تذكر شهادة الأذن والعين والجلد، كما في الآية (20) من سورة فصّلت حين يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1]، أو ما ورد في الآية (24) من سورة النور من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

والجدير بالملاحظة أنّه تعالى في سورة النور يقول: ﴿تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ وفي الآية مورد البحث يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، ومن الممكن أن يكون ما يحصل هناك هو أن يختم على فم المجرم أوّلاً لتشهد أعضاؤه، وبعد أن يرى بنفسه شهادة أعضائه، يفتح لسانه، ولأنّه لا مجال للإنكار فإنّ لسانه أيضاً يقرّ بالحقيقة.

وكذلك يحتمل أن يكون المقصود من كلام اللسان هو الكلام الداخلي الذي ينبعث منه كما في سائر الأعضاء، وليس نطقه العادي.

آخر ما نريد قوله بخصوص موضوع تكلّم الأعضاء هو أنّ ذلك خاص بالمجرمين، وإلّا فالمؤمنون حسابهم واضح، لذا ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**ليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطي كتابه بيمينه، قال الله عزّ وجلّ:** ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾»[3].

(1) سورة فصّلت، الآية 20.
(2) سورة النور، الآية 24.
(3) تفسير الصافي، ج4، ص258

الآية التالية تشير إلى أحد ألوان العذاب التي يمكن أن يبتلي الله تعالى بها المجرمين في هذه الدنيا، تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[1].

وفي تلك الحالة التي يبلغ فيها الرعب الذروة عندهم: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾، فهم عاجزون حتّى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحقّ وسلوك الصراط المستقيم! وعقوبة مؤلمة أخرى لهم: انّنا لو أردنا لمسخناهم في مكانهم على شكل تماثيل حجرية فاقدة للروح والحركة، أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدّم إلى الأمام، ولا الرجوع إلى الخلف: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾[2].

﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يمكن أن تكون بمعنى التسابق فيما بينهم للعثور على الطريق الذي يذهبون منه عادة، أو بمعنى الانحراف عن الطريق وعدم العثور عليه، على ضوء ما قاله بعض أرباب اللغة من أن ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ بمعنى «**جاوزوه وتركوه حتّى ضلّوا**»[3].

وعلى كلّ حال، فطبقاً للتفسير الذي قبل به أغلب المفسّرين الإسلاميين، فإنّ الآيتين أعلاه، تتحدّثان عن عذاب الدنيا، وعن تهديد الكفّار والمجرمين بأنّ الله سبحانه وتعالى قادر على تعريضهم لمثل هذا العذاب في الدنيا، ولكن للطفه ورحمته فإنّه يمتنع عن ذلك، فقد ينتبه هؤلاء المعاندين ويرجعوا عن غيّهم إلى طريق الحقّ.

ولكن يوجد احتمال آخر أيضاً، وهو أنّ الآيات تشير إلى العقوبات الإلهيّة في يوم القيامة لا في الدنيا، وفي الحقيقة فهو تعالى بعد أن أشار إلى «**الختم على أفواههم**» في الآية السابقة، يشير هنا إلى نوعين آخرين من العقوبات التي لو شاء لأجراها عليهم:

الأوّل: الطمس على عيونهم بحيث لا يمكنهم رؤية «**الصراط**» أي طريق الجنّة.

الثاني: أنّ هؤلاء الأفراد بعد أن كانوا فاقدين للحركة في طريق السعادة فإنّهم يتحوّلون

(1) ﴿طَمَسْنَا﴾ من طمس- على وزن شمس- بمعنى إزالة الأثر بالمحو، هذه الإشارة إلى إزالة ضوء العين أو صورتها بشكل كلّي بحيث لا يبقى منها أثر.

(2) ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ بمعنى محل التوقّف، وهي إشارة إلى أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخرجهم عن إنسانيتهم في محل توقّفهم، يغيّر أشكالهم، ويفقدهم القدرة على الحركة، تماماً كالتمثال الخالي من الروح.

(3) لسان العرب- قطر المحيط- المنجد «مادّة سبق».

إلى تماثيل ميتة في ذلك اليوم ويظلّون حيارى في مشهد المحشر، وليس لهم طريق للتقدّم أو للتراجع، إنّ تناسب الآيات -طبعاً- يؤيّد هذا التّفسير الأخير، وإن كان أكثر المفسّرين قد اتّفقوا على قبول التّفسير السابق[1].

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان في آخر عمره من حيث الضعف والعجز العقلي والجسمي، لتكون إنذاراً لهم وليختاروا طريق الهداية عاجلاً، ولتكون جواباً على الذين يلقون بمسؤولية تقصيرهم على قصر أعمارهم، وكذلك لتكون دليلاً على قدرة الله سبحانه وتعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوي إلى ضعف وعجز الوليد الصغير... قادر على مسألة المعاد بالضرورة، وعلى الطمس على عيون المجرمين ومنعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من مادّة «**تنكيس**» وهو قلب الشيء على رأسه. وهي هنا كناية عن الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة. فالإنسان منذ بدء خلقته ضعيف، ويتكامل تدريجيّاً ويرشد، وفي أطواره الجنينية يشهد في كلّ يوم طوراً جديداً ورشداً جديداً، وبعد الولادة -أيضاً- يستمرّ في مسيره التكاملي جسمياً وروحياً وبسرعة، وتبدأ القوى والاستعدادات التي أخفاها الله في أعماق وجوده بالظهور تدريجيّاً الواحدة تلو الأخرى، في طور الشباب، ثمّ طور النضج، ليبلغ الإنسان أوج تكامله الجسمي والروحي.

وهنا تنفصل الروح عن الجسد في تكاملها ونموّها، فتستمر في تكاملها في حال أنّ الجسد يشرع بالنكوص، ولكن العقل في النهاية يبدأ هو الآخر بالتراجع أيضاً، فيعود تدريجيّاً -وأحياناً بسرعة- إلى مراحل الطفولة، ويتساوق ذلك مع الضعف البدني أيضاً، مع الفارق طبعاً، فالآثار التي تتركها حركات وروحيات الأطفال على النفس هي الراحة والجمال والأمل ولهذا فهي مقبولة منهم، ولكنّها من أهل الشيخوخة، قبيحة ومنفّرة، وفي بعض الأحيان قد تثير الشفقة والترحّم، فالشيخوخة أيّام عصيبة حقّاً، يصعب تصوّر عمق آلامها.

(1) ذكر صاحب تفسير «في ظلال القرآن»، سيد قطب هذا التّفسير على انّه الوحيد، في حين انّ التّفسير السابق اختاره كلّ من تفسير: مجمع البيان- التبيان- الميزان- الصافي- روح المعاني- روح البيان- القرطبي- التّفسير الكبير.

في الآية (5) سورة الحجّ أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنى، قائلاً: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾[1]. لذا فقد ورد في بعض الروايات أنّ من جاوز السبعين حيّا فهو «**أسير الله في الأرض**»[2].

وعلى كلّ حال، فإنّ جملة ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ تشعّ تنبيهاً عجيباً بهذا الخصوص، وتقول للبشر: إنّ هذه القدرة والقوّة التي عندكم لو لم تكن على سبيل العارية لما أخذت منكم بهذه البساطة. اعلموا أنّ فوقكم يد قدرة أخرى قادرة على كلّ شيء، فقبل أن تصلوا إلى تلك المرحلة خلّصوا أنفسكم، وقبل أن يتبدّل هذا النشاط والجمال إلى موت وذبول. اجمعوا الورد من هذا الروض، وتزوّدوا بالزاد من هذه الدنيا لطريق الآخرة البعيد، لأنّه لم يمكنكم أداء أي عمل ذي قيمة في وقت الشيب والضعف والمرض. ولذا فإنّ من ضمن ما أوصى به النّبي ﷺ أبا ذرّ أنّه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[3].

(1) سورة الحج، الآية 5.

(2) راجع: الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص413. وفيه: تسعين سنة.

(3) بحار الأنوار، المجلسّي، ج77، ص75، حديث 3.

وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

التّفسير

إنّه ليس بشاعر، بل نذير!

قلنا إنّ في هذه السورة بحوثاً حيّة وجامعة حول أصول الإعتقادات: التوحيد، والمعاد، والنبوّة، وتنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرحت في الآيات السابقة بحوث مختلفة حول التوحيد والمعاد، وتعود هاتان الآيتان إلى البحث في مسألة النبوّة، وقد أشارتا إلى أكثر الاتّهامات رواجاً والتي أثيرت بوجه الرّسول الأكرم ﷺ، وردّت عليهم ردّاً قويّاً، منها اتّهام الرّسول بكونه شاعراً، فقالت: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾.

لماذا اتُّهم الرّسول ﷺ بهذا الاتّهام مع أنّه لم يقل الشعر أبداً؟

كان ذلك بسبب الجاذبية الخاصّة للقرآن الكريم ونفوذه في القلوب، الأمر الذي كان محسوساً للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، وقد كانت جاذبية القرآن الكريم الخاصّة قد أثّرت حتّى في نفوس الكفّار الذين كانوا أحياناً يأتون إلى جوار منزل النّبي ﷺ بشكل خفي ليلاً لكي يستمعوا إلى تلاوته للقرآن في عمق الليل.

وكم من الأشخاص الذين تولّعوا وعشقوا الإسلام لمجرّد سماعهم القرآن الكريم وأعلنوا إسلامهم في نفس المجلس الذي استمعوا فيه إلى بعض آياته.

وهنا حاول الكفّار من أجل تفسير هذه الظاهرة العظيمة، ولغرض استغفال الناس وصرف أنظارهم من كون ذلك الكلام وحياً إلهيّاً، فأشاعوا تهمة الشعر في كلّ مكان، والتي كانت بحدّ ذاتها تمثّل اعترافاً ضمنياً بتميّز كلام القرآن الكريم.

وأمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم ﷺ أن يكون شاعراً، فلأنّ طبيعة الشعر تختلف تماماً عن الوحي الإلهي، للأسباب التالية:

1. إنّ أساس الشعر -عادة- هو الخيال والوهم، فالشاعر غالباً ما يحلّق بأجنحة الخيال، والحال أنّ الوحي يستمدّ وجوده من مبدأ الوجود ويدور حول محور الحقيقة.
2. الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيّرة، وهي في حال تغيّر وتبدّل مستمرين، أمّا الوحي الإلهي فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.
3. لطافة الشعر تنبع في الغالب من الإغراق في التمثيل والتشبيه والمبالغة، إلى درجة أن قيل: «**أحسن الشعر أكذبه**»، أمّا الوحي فليس إلّا الصدق.
4. الشاعر في أغلب الموارد وجرياً وراء التزويق اللفظي يكون مجبراً على السعي وراء الألفاظ، ممّا يضيع الكثير من الحقائق في الأثناء.
5. وأخيراً يقول أحد المفسّرين: إنّ الشعر مجموعة من الأشواق التي تحلّق منطلقة من الأرض باتّجاه السماء، بينما الوحي حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، وهذان الاتّجاهان واضح تفاوتهما.

وهنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام أولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق باتّجاه أهداف مقدّسة، ويصونون أشعارهم من كلّ ما لا يرضي الله. وعلى كلّ حال، فإنّ طبيعة أغلب الشعراء كما أوردناه أعلاه.

لذا فإنّ القرآن الكريم يقول في آخر سورة الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ

﴿تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1]. طبعاً فإنّ هذه الآيات نفسها تشير في آخرها إلى الشعراء المؤمنين الذين يسخّرون فنّهم في سبيل أهدافهم السامية، وهم مستثنون من ذلك التعميم ولهم حساب آخر.

ولكن على أيّة حال، فإنّ الرّسول ﷺ لا يمكن أن يكون شاعراً، وعندما يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ﴾، فمفهومه أنّه مجانب للشعر، لأنّ جميع التعاليم النازلة إليه هي من الله تعالى.

والملفت للنظر أنّ التأريخ والروايات تنقل كثيراً من الأخبار التي تشير إلى أنّ الرّسول الأكرم ﷺ حينما يريد الاستشهاد ببيت من الشعر، فإنّه غالباً ما يقوله بطريقة منثورة.

فعن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله يتمثّل ببيت أخي بني قيس فيقول:

ستبدي لك الأيّـام ما كنت جاهلاً ويـأتـيـك مـن لم تـــزوّد بـالأخـبـار

فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فيقول: إنّي لست بشاعر وما ينبغي لي[2].

ثمّ يضيف تعالى في آخر الآية لنفي الشعر عن الرّسول ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

والهدف هو الإنذار وإتمام الحجّة: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

نعم، هذه الآيات ﴿ذِكْرٌ﴾ ووسيلة تنبيه، هذه الآيات ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يوضّح الحقّ بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية وصراحة، ولذا فهو عامل انتباه وحياة وبقاء.

مرّة أخرى نرى القرآن الكريم يجعل الإيمان هو الحياة والمؤمنين هم الأحياء والكفّار هم الموتى، ففي جانب يذكر عنوان ﴿حَيًّا﴾ وفي الطرف المقابل عنوان «**الكافرون**»، فهذه هي الحياة والموت المعنوي اللذان هما أعلى بمراتب من الموت والحياة الظاهريين.

(1) سورة الشعراء، الآيات 224- 226.

(2) مجمع البيان، الطبرسي، ج4، ص433.

(3) جملة ﴿لِّيُنذِرَ...﴾ متعلّقة بـ ﴿ذِكْرٌ﴾ الواردة في الآية السابقة، وبعضهم اعتبرها متعلّقة بـ ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ أو ﴿نَزَّلْنَا﴾ تقديراً، ولكن الاحتمال الأوّل هو الأنسب على ما يبدو.

وآثارهما أوسع وأشمل، فإذا كانت الحياة والمعيشة بمعنى «**التنفّس**» و«**أكل الطعام**» و«**الحركة**»، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياة إنسانية، الحياة الإنسانية هي تفتّح أزهار العقل والفهم والملكات الرقيقة في روح الإنسان، وكذلك التقوى والإيثار والتضحية والتحكّم بالنفس، والتحلّي بالفضيلة والأخلاق، والقرآن ينمي هذه الحياة في وجود الإنسان.

والخلاصة: إنّ الناس ينقسمون حيال دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعة حيّة يقظة تلبّي تلك الدعوة، وتلتفت إلى إنذاراتها، ومجموعة من الكفّار ذوي القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّة استجابة أبداً، ولكن هذه الإنذارات سبب في إتمام الحجّة عليهم، وتحقّق أمر العذاب بحقّهم.

| بحث |

حياة وموت القلوب

في الإنسان أنواع من الحياة والموت:

الأوّل: الحياة والموت النباتي الذي مظهره النمو والرشد والتغذية والتوالد، وهو في هذا الشأن يشابه جميع النباتات.

الثاني: الحياة والموت الحيواني. وأبرز مظاهرها «**الإحساس**» و«**الحركة**»، وهو مشترك في هاتين الصفتين مع جميع الحيوانات.

أمّا النوع الثالث من الحياة الخاصّ بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية والروحية). وهو ما قصدته الروايات بقولها «**حياة القلوب**». حيث إنّ المقصود بالقلب هنا «**الروح والعقل والعواطف**» الإنسانية.

ففي حديث أمير المؤمنين عليه السلام حول القرآن يقول: «**وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن**

الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب»[1].

وفي حديث آخر له عليه السلام يقول عن الحكمة والتعلّم: «**واعلموا أنّه ليس من شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملّه إلّا الحياة، فإنّه لا يجد في الموت راحة، وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميّت وبصر للعين العمياء**»[2].

وقال عليه السلام: «**ألا وإنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشدّ من مرض البدن مرض القلب، ألا وإنّ من صحّة البدن تقوى القلوب**»[3].

ويقول عليه السلام: «**ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه**»[4].

ومن جهة أخرى فإنّ القرآن الكريم يشخّص للإنسان نوعاً خاصّاً من الإبصار والسماع والإدراك والشعور، غير النظر والسماع والشعور الظاهري، ففي الآية (171) من سورة البقرة نقرأ: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[5].

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[6]. كذلك يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾[7]. وحول مجموعة من الكافرين يعبّر تعبيراً خاصاً فيقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[8]. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[9]. من مجموع هذه التعبيرات وتعبيرات كثيرة أخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة والموت، هو ذلك المحور الإنساني والعقلاني، إذ إنّ قيمة

(1) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الامام علي عليه السلام، خطبة 110، ص133 والكلمات القصار الكلمة 388.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، الكلمات القصار الكلمة 345.
(5) سورة البقرة، الآية 171.
(6) سورة البقرة، الآية 10.
(7) سورة البقرة، الآية 74.
(8) سورة المائدة، الآية 41.
(9) سورة الأنعام، الآية 36.

الإنسان تكمن في هذا المحور.

وفي الحقيقة فإنّ الحياة والإدراك والإبصار والسماع وأمثالها، تتلخّص في هذا القسم من وجود الإنسان، وإن اعتبر بعض المفسّرين هذه التعبيرات مجازية، إذ إنّ ذلك لا ينسجم مع روح القرآن هنا، لأنّ الحقيقة في نظر القرآن هي هذه التي يذكرها، والحياة والموت الحيوانيان هما المجازيان لا غير.

إنّ أسباب الموت والحياة الروحية كثيرة جدّاً، ولكن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق والكبر والغرور والعصبية والجهل والكبائر، كلّها تميت القلب، ففي مناجاة التائبين التي تُروى عن الإمام السجّاد عليه السلام في الصحيفة السجّادية ورد: «**وأمات قلبي عظيم جنايتي**»[1].

والآيات مورد البحث تأكيد على هذه الحقيقة.

فهل أنّ من يرضى من حياته فقط بأن يعيش غير عالم بشيء في هذه الدنيا، ويجري دائماً مدار العيش الرغيد الرتيب، لا يعبأ بظلامة المظلوم، ولا يلبّي نداء الحقّ، يفكّر في نفسه فقط، ويعتبر نفسه غريباً حتّى عن أقرب الأقرباء، هل يعتبر مثل هذا إنساناً حيّاً؟

وهل هي حياة تلك التي تكون حصيلتها كميّة من الغذاء المصروف، وإبلاء بعض الألبسة، والنوم والاستيقاظ المكرور؟ وإذا كانت تلك هي الحياة فما هو فرقها عن حياة الحيوان؟

إذاً، يجب أن نقرّ ونعترف بأنّ وراء هذه الحياة الظاهرية يكمن عقل وحقيقة أكّد عليها القرآن وتحدّث عنها.

الجميل أنّ القرآن يعتبر الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياء، ولكن الأحياء الذين ليس فيهم أي من آثار الحياة الإنسانية فانّهم في منطق القرآن الكريم أموات أذلّاء.

(1) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، ص401.

أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ
أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا
رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ
ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥ فَلَا يَحۡزُنكَ
قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦

التّفسير

فوائد الأنعام للإنسان!

يعود القرآن الكريم مرّة أخرى في هذه الآيات إلى مسألة التوحيد والشرك، ويشير -ضمن تعداد قسم من آثار عظمة الله في حياة البشر، وحلّ مشكلاتهم ورفع حاجاتهم- إلى ضعف وعجز الأصنام، وبمقارنة واضحة يشطب على الشرك ويثبت بطلانه، وفي نفس الوقت يثبت حقّانية خطّ التوحيد.

تقول الآية الكريمة الأولى: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[1].

(1) جملة ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ...﴾ جملة معطوفة على سابقتها بواو العطف، ولكن حين دخول الهمزة الاستفهامية على الجملة فإنّها تتصدّرها، (والرؤية) هنا بمعنى المعرفة، أو الإبصار.

ولكي يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

ولا تنتهي منافعها إلى هذا الحدّ، بل ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾، وعليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الشكر الذي هو وسيلة معرفة الله وتشخيص وليّ النعمة.

هنا يجب الالتفات إلى بعض الأمور:

1. من بين النعم المختلفة التي تغمر الإنسان، أشارت الآية إلى نعمة وجود الأنعام، لأنّها تشكّل حضوراً دائماً في حياة الإنسان اليومية، إلى حدّ أنّ حياة الإنسان اقترنت بها، بحيث لو أنّها حذفت من صفحة حياة الإنسان فإنّ ذلك سيشكّل عقدة ومشكلة بالنسبة إلى معيشته وأعماله، غير أنّ الإنسان لا يلتفت إلى أهمّيتها لأنّه تعوّد رؤيتها يومياً.

2. جملة ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ كناية عن إعمال القدرة الإلهيّة بشكل مباشر، إذ إنّ أهمّ الأعضاء التي يمارس بها الإنسان قدرته ويعبّر عنها هي يداه، لهذا السبب كانت «**اليد**» كناية عن القدرة، كأن يقول أحدهم: «**إنّ المنطقة الفلانية في يدي**» كناية عن أنّها تحت سيطرته ونفوذه، ويقول القرآن في هذا الصدد: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]. وذكر «**الأيدي**» هنا بصيغة الجمع إشارة إلى مظاهر متنوّعة لقدرة الباري عزّ وجلّ.

3. جملة ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ المبتدأ بفاء التفريع، إشارة إلى أنّ الخلق مرتبط بقدرتنا، وأمّا المالكية فقد فوّضناها إلى الإنسان، وذلك منتهى اللطف الإلهي. وعليه، فلا محلّ للإشكال الذي ظهر لبعض المفسّرين نتيجة وجود «**فاء التفريع**»، فالمعنى تماماً كما نقول لشخص: هذا البستان زرعناه وأعمرناه، استفد منه أنت، وهذا منتهى إظهار المحبّة والإيثار.

4. جملة ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ إشارة إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي تذليل هذه الحيوانات للإنسان. فتلك الحيوانات القوية والتي تنسى في بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهي،

(1) سورة الفتح، الآية 10.

وتثور وتغضب وتعاند فتصبح خطرة إلى درجة أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها. وفي حالاتها الاعتيادية فإنّ قافلة كاملة من الجمال يقودها تارة صبي لم يبلغ الحلم، ويدفعها في الطريق الذي يرتئيه! إنّه لأمر عجيب حقّاً، فإنّ الإنسان غير قادر على خلق ذبابة، ولا حتّى ترويضها وتذليلها لخدمته، أمّا الله القادر المنّان فإنّه خلق ملايين الملايين من الحيوانات المختلفة، وذلّلها للإنسان لتكون في خدمته دوماً.

5. جملة ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ -مع الالتفات إلى أنّ ﴿رَكُوبُهُمْ﴾ صفة مشبّهة بمعنى (مركوبهم)- إشارة إلى أنّ الإنسان ينتخب قسماً منها للركوب وقسماً آخر للتغذّي. وإن كان لحم أغلب الحيوانات المشهورة حلال بنظر الإسلام، إلّا أنّ الإنسان استفاد عمليّاً من بعضها فقط للتغذية، فمثلاً لحم الحمير لا يستفاد منه إلّا في الضرورة القصوى.

ومن الواضح أنّ ذلك إذا اعتبرنا ﴿مِنْهَا﴾ في كلا الجملتين «**للتبعيض الإفرادي**»، أمّا لو اعتبرنا الأولى «**للتبعيض الافرادي**» والثانية «**للتبعيض الأجزائي**» يكون معنى الآية (بعض الحيوانات تنتخب للركوب وينتخب جزء من أجسامها للتغذية (إذ إنّ العظام وأمثالها غير قابلة للأكل).

6. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الأخرى التي تتحقّق للإنسان، ومن جملتها الأصواف والأوبار التي تصنع منها مختلف الملابس والخيم والفرش، والجلود التي تصنع منها الحقائب والملابس والأحذية ووسائل أخرى مختلفة، وحتّى في عصرنا الحاضر الذي تميّزت فيه الصناعات التقليدية من منتجات الطبيعة لا زال الإنسان في مسيس الحاجة إلى الحيوانات من حيث التغذية ومن حيث الفوائد الأخرى كالألبسة ووسائل الحياة الأخرى. وحتّى بعض أنواع الأمصال واللقاحات ضدّ الأمراض التي يستفاد فيها من دماء بعض الحيوانات، بل حتّى أنّ أتفه الأشياء الحيوانية وهي روثها أصبح ومنذ وقت طويل مورد استفادة الإنسان لتسميد المزارع وتغذية النباتات المثمرة.

7. ﴿مَشَارِبُ﴾ إشارة إلى الحليب الذي يؤخذ من تلك الدواب ويؤمّن مع منتجاته قسماً مهمّاً من المواد الغذائية للإنسان، بشكل أضحّت فيه صناعة الحليب ومنتجاته تشكّل اليوم رقماً مهمّاً في صادرات وواردات الكثير من الدول، ذلك الحليب الذي يشكّل غذاء للإنسان، ويخرج من بين دم وفرث لبناً سائغاً يلتذّ به الشاربون، ويكون عاملاً لتقوية الضعفاء.

8. جملة ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ جاءت بصيغة الاستفهام الاستنكاري، وتهدف إلى تحريك الفطرة والعواطف الإنسانية لشكر هذه النعم التي لا تحصى، والتي ورد جانب منها في الآيات أعلاه، وكما نعلم فإنّ «**لزوم شكر المنعم**» أساس لمعرفة الله، إذ إنّ الشكر لا يمكن أن يكون إلّا بمعرفة المنعم، إضافة إلى أنّ التأمّل في هذه النعم وإدراك أنّ الأصنام ليس لها أدنى تأثير أو دخل فيها، سيؤدّي إلى إبطال الشرك.

لذا فإنّ الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين ووصف حالهم فتقول: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾.

فيا له من خيال باطل وفكر ضعيف! ذلك الذي يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التي لا تملك لنفسها -ناهيك عن الآخرين- ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونها إلى جانب الله سبحانه وتعالى ويقرنونها به تعالى، ويلجأون إليها لحلّ مشاكل حياتهم!

نعم، فهم يلجأون إليها لتكون عزّاً لهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾[1]. ويتوهّمون أنّها تشفع لهم عند الله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

على كلّ حال، فإنّ جميع هذه الأوهام نقش على الماء، وكما يقول القرآن الكريم في الآية (192) من سورة الأعراف: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[2].

وعليه، تضيف الآية التالية: إنّ المعبودات لا تستطيع نصرة المشركين، وسيكون هؤلاء المشركون جنوداً مجنّدة يتقدّمونها إلى جهنّم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

(1) سورة مريم، الآية 81.
(2) سورة الأعراف، الآية 192.

ويا له من أمر أليم أن يصطفّ هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنّم زمراً في ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حلّ عقدة مشكلة واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين في ذلك الموقف الرهيب!

التعبير بـ ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ يكون عادة للتحقير، لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّ على حقارتهم، وبناء على هذا التّفسير فإنّ الضمير الأوّل ﴿هُمْ﴾ في جملة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يعود على «**المشركين**»، والضمير الثاني يعود على «**الأصنام**»، في حال أنّ بعض المفسّرين احتملوا العكس بحيث تكون الأصنام والأوثان هي التابعة للمشركين في يوم القيامة. وفي نفس الوقت فإنّهم -المشركين- ليس لهم في الأوثان أدنى أمل، والظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه التعابير تصدق -فقط- على المعبودات الحيّة ذات الشعور كالشياطين والعصاة من الجنّ والإنس، ولكن يحتمل أيضا أنّ الله سبحانه وتعالى يبعث الروح في تلك الأصنام والأوثان ويعطيها العقل والشعور لكي توبّخ هي أولئك الذين عبدوها في الدنيا، وضمناً نقول إنّ هذه الأوثان الحجرية والخشبية ستكون هي الحطب الذي يؤجّج على أولئك المشركين نار جهنّم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[1]. أخيراً -وفي آخر آية من هذه الآيات، ولمواساة الرّسول الأكرم ﷺ وتثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، والفتن والأعمال الخرافية- تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تارة يقولون شاعر، وأخرى ساحر وأمثال ذلك من التهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

فلا تخفى علينا نواياهم، ولا مؤامراتهم في الخفاء، ولا جحودهم وتكذيبهم لآياتنا في العلن، نعلم بكلّ ذلك، ونحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، وستكون أنت أيضاً في أمان من شرّهم في هذه الدنيا.

وبهذا الحديث الإلهي المواسي يمكن لكلّ مؤمن أيضاً -مضافاً إلى الرّسول الأكرم ﷺ- أن يكون مطمئن القلب بأنّ كلّ شيء في هذا العالم هو بعين الله، وسوف لن يصيبه شيء

(1) سورة الأنبياء، الآية 98.

من مكائد الأعداء، فهو تعالى لا يترك عباده المخلصين في اللحظات والمواقف العصيبة، وهو دوماً حام لهم وحافظ.

|بحث|

الثقافة التوحيدية تمنح عباد الله المؤمنين طريقة خاصّة في الحياة، تبعدهم عن السبل الملوثة بالشرك القائمة على أساس عبادة الأوثان، أو اللجوء إلى بعض البشر الضعاف.

وبصراحة ووضوح أكثر نقول: في عالمنا اليوم وحيث تتحكّم في البشرية قدرتان من الشرق والغرب، فإنّ الدول الصغيرة -عادة- وكلّ ما عدا تلكم القدرتين ستفكّر لأجل حفظ نفسها والبقاء بالاتّكاء على إحدى تلك القدرتين الصنمين، وتطلب حمايتها والإفادة من قدرتها، في حال أنّ التجارب أثبتت أنّ هاتين القدرتين عند بروز المشاكل والحوادث المستعصية والاضطرابات لا تستطيع حلّ مشكلاتها ولا مشكلات من يدور في فلكها.

وما أجمل ما يقوله القرآن واصفا هذه الحالة: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، وهذا تحذير لجميع المسلمين وسالكي طريق التوحيد الخالص، بأن يبتعدوا عن تلك الأصنام، ويلجأوا إلى ظلّ اللطف الإلهي، وأن يعتمدوا على أنفسهم، وعلى طاقة الإيمان، وأن لا يدعوا طريقاً لهذه الأفكار الإشراكية الملوّثة تصل إلى فكرهم بحيث يلجأون إلى تلك القدرات ويستنجدونها في الملمّات، وأن يطهّروا الثقافة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من هذه الأفكار، وأن يعلموا بأنّهم قد نالوا ضربات عديدة حتّى الآن نتيجة هذا المنطق -سواء أمام إسرائيل الغاصبة أو الأعداء الآخرين- في حال أنّه لو كان هذا الأصل القرآني الأصيل يحكم فيهم فإنّ حالهم لم تكن لتبلغ هذا المستوى من الهزيمة والانكسار، آملين أن نصل إلى اليوم الذي نعيد فيه بناء أفكارنا حسب المفاهيم والمبادئ القرآنية، وأن نعتمد على أنفسنا، ونلجأ إلى ظلّ اللطف الإلهي فنعيش أعزّاء مرفوعي الرؤوس أحراراً إن شاء الله.

﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾

سبب النّزول

نقلت أغلب التفاسير عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**جاء أبيّ بن خلف (أو العاص بن وائل)، فأخذ عظماً بالياً من حائط ففتّه، ثمّ قال: إذا كنّا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً؟!؛ فأنزل الله:** ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾[1]»[2].

التّفسير

قلنا إنّ البحوث المختلفة حول المبدأ والمعاد والنبوّة في سورة (يس) التي هي قلب القرآن وردت بشكل مقاطع مختلفة، فهذه السورة ابتدأت بمسألة النبوّة، واختتمت بسبعة آيات تمثّل أقوى البيانات حول المعاد.

في البدء تأخذ بيد الإنسان وتشير له إلى بدء حياته في ذلك اليوم حيث كان نطفة مهينة لا غير وتدعوه إلى التأمّل والتفكّر، فتقول: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ

(1) سورة يس، الآيتان 78و79.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج7، ص43.

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1]. يا له من تعبير حيوي! فالآية تؤكّد أوّلًا على مخاطبة الإنسان، أيّا كان وأيّ إعتقاد وكان يعتقد، وعلى أيّ مستوى كان من العلم، فهو يستطيع إدراك هذه الحقيقة.

ثمّ تتحدّث عن «**النطفة**» والتي هي لغوياً بمعنى «**الماء المهين**» لكي يعلم هذا الإنسان المغرور المتكبّر -بقليل من التأمّل- ماذا كان في البدء؟ كما أنّ هذا الماء المهين لم يكن هو السبب في نشوئه وظهوره، بل خليّة حيّة متناهية في الصغر، لا ترى بالعين المجرّدة، من ضمن آلاف بل ملايين الخلايا الأخرى التي كانت تسبح في ذلك الماء المهين، وباتّحادها مع خلية صغيرة أخرى مستقرّة في رحم المرأة تكوّنت الخليّة البشرية الأولى، ودخل الإنسان إلى عالم الوجود! وتتواصل مراحل التكامل الجنيني الواحدة بعد الأخرى والتي هي ستّة مراحل كما نقلها القرآن الكريم في بداية سورة المؤمنون (النطفة، العلقة، المضغة، العظام، اكتساء العظام باللحم، وتمثّل الخلق السوي). ثمّ إنّ الإنسان بعد الولادة كائن ضعيف جدّاً، لا يملك القدرة على شيء، ثمّ يقطع مراحل نموّه بسرعة حتّى بلوغ الرشد الجسماني والعقلي.

نعم، فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قويّاً إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهيّة، وينسى ماضيه ومستقبله، ليكون مصداقاً حيّاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾. واللطيف أنّ هذا التعبير يتضمّن جنبتين، إحداهما تمثّل جانب القوّة، والأخرى جانب الضعف، ويظهر أنّ القرآن الكريم أشار إليهما جميعاً.

إنّ هذا العمل لا يكون إلّا من إنسان يملك عقلاً وفكراً وشعوراً واستقلالاً وإرادة، ونعلم بأنّ أهمّ مسألة في حياة الإنسان هي التكلّم والحديث الذي يهيّأ محتواه مسبقا في الذهن، ثمّ يصبّ في قالب من العبارات ويطلق باتّجاه الهدف كالرصاص المنطلق من فوهة البندقية، وهذا العمل لا يمكن حدوثه في أي كائن حي عدا الإنسان.

وبذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى يجسّد قدرته في إعطاء هذا الماء المهين هذه القوّة العظيمة... هذا من جانب.

(1) «خصيم» بمعنى المصّر على الخصومة والجدال، و(الرؤية) بمعنى (العلم).

ومن جانب آخر، فإنّ الإنسان مخلوق مغرور وكثير النسيان، فهو يستغلّ كلّ هذه النعم التي أولاها إيّاه ولي نعمته ضدّه في المجادلة والمخاصمة، فيا له من مغفّل أحمق! ويكفي لمعرفة مدى غفلته وحمقه أنّه جاء: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1].

المقصود من ضرب المثل هنا، نفس المعنى بدون التشبيه والكناية. فالمقصود هو الاستدلال وذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن. نعم، فإنّ (أبيّ بن خلف أو اميّة بن خلف، أو العاص بن وائل) كان قد وجد قطعة متفسّخة من عظم لم يكن معلوماً لمن؟ وهل مات موتاً طبيعياً؟ أو في واحدة من حروب العصر الجاهلي المهولة؟ أو مات جوعاً؟ وظنّ أنّه وجد فيه دليلاً قويّاً لنفي المعاد! فحمل تلك القطعة من العظم وذهب حانقاً وفرحاً في نفس الوقت وهو يقول: لأخصمنّ محمّداً.

فذهب إلى الرّسول الأكرم ﷺ وهو في عجلة من أمره ليقول له: قل لي من ذا الذي يستطيع أن يلبس هذا العظم البالي لباس الحياة من جديد؟ وفتّ بيده قسماً من العظم وذرّه على الأرض، واعتقد بأنّ الرّسول ﷺ سيتحيّر في الجواب ولا يملك ردّاً!

والجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة وهي قوله تعالى: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ﴾. وإن كان قد أردف مضيفاً توضيحاً أكثر.

فكأنّه يقول: لو لم تنسَ بدء خلقك لما استدللت بهذا الاستدلال الواهي الفارغ أبداً.

أيّها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلاً إلى الوراء وانظر في خلقك، كيف كنت نطفة تافهة وكلّ يوم أنت في لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت في حال موت وبعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلاً بالغاً، وبكميّة من عالم النبات الجامد، ومن عالم الحيوان الميّت أيضاً أصبحت إنساناً، ولكنّك نسيت كلّ ذلك وصرت تسأل: من يحيي العظام وهي رميم؟ ألم تكن أنت في البدء تراباً كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟! لذا فإنّ الله سبحانه وتعالى يأمر الرّسول ﷺ بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسي ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾.

(1) «رميم» من مادّة (رم) وهو إصلاح الشيء البالي، و«الرّمّة» تختص بالعظم البالي، و«الرّمّة» تختص بالحبل البالي، (مفردات الراغب مادّة (رم) ص203).

فإذا كان بين يديك اليوم بقيّة من العظام المتفسّخة تذكّرك به، فقد مرّ يوم لم تكن فيه شيئاً ولا حتّى تراباً، نعم، أفليس سهلاً على من خلقك من العدم أن يعيد الحياة إلى العظام المهترئة؟! وإذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح تراباً وتنتشر في الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط انتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضا واضح: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

فمن كان له مثل هذا العلم وهذه القدرة فإنّ مسألة المعاد وإحياء الموتى لا تشكّل بالنسبة إليه أيّة مشكلة. فنحن نستطيع بقطعة من المغناطيس جمع برادة الحديد المبثوثة في كميّة من التراب وفي لحظات، والله العالم القادر يستطيع كذلك بأمر واحد أن يجمع ذرّات بدن الإنسان من كلّ موضع كانت فيه من الكرة الأرضية. فهو العالم ليس بخلق الإنسان فقط، بل هو العالم بنواياه وأعماله أيضاً، المحيط بكلّ شيء علماً وهو على كلّ شيء قدير. وعليه، فإنّ الحساب على الأعمال والنوايا والإعتقادات المضمرة لا يشكّل له.

وعليه، فإنّ الحساب على الأعمال والنوايا والإعتقادات المضمرة لا يشكّل له تعالى أدنى مشكلة أيضاً، فكما ورد في الآية (284) من سورة البقرة: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

وكذلك حينما أظهر فرعون شكّاً في قدرة الله على المعاد وإحياء القرون السابقة، أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية 284.

(2) سورة طه، الآية 52.

الآية 80

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ
نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

التّفسير

تتابع هذه الآية البحوث المختلفة حول المعاد والإشارات العميقة المعنى حول مسألة إمكان المعاد ورفع أي استبعاد لذلك، والآية أعلاه شرح أوسع وأوضح حول هذه المسألة، تقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، ويا له من تعبير رائع ذلك الذي كلّما دقّقنا فيه أفاض علينا معاني أعمق وأدقّ! وكما نعلم فإنّ الآيات القرآنية لها معان متعدّدة من أبعاد مختلفة -فبعض معانيها واضح للغالبية من الناس في كلّ زمان ومكان، وبعضها عميق يختصّ بفهمه بعضهم، وأخيراً فإنّ بعضها الآخر يتمثّل فيه العمق الذي لا يستطيع سبر غوره إلّا الخواص من العبّاد، وفي نفس الوقت فإنّ تلك المعاني لا ينافي بعضها بعضا، بل إنّها تجمع كلّها في قالب واحد وفي آن واحد. والآية مورد البحث هكذا تماماً.

التّفسير الأوّل الذي قال به الكثير من المفسّرين القدماء. وهو بسيط وواضح يمكن فهمه واستيعابه من قبل الغالبية وهو: أنّ المراد هو شجر «**المرخ والعفار**» الذي كان العرب قديماً يأخذون منهما على خضرتهما، فيجعل العفار زندا أسفل ويجعل المرخ زنداً أعلى، فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن الله.

وفي الواقع فهو يمثّل الكبريت في عصرنا الحالي. والله سبحانه وتعالى يريد القول بأنّ الذي يستطيع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدرة على إلباس الموتى لباس الحياة.

فالماء والنار شيئان متضادّان، فمن يستطيع جعلهما معاً في مكان واحد، قادر على جعل الحياة والموت معاً في مكان واحد. فالذي يخلق النار في قلب الماء والماء في قلب النار فمن المسلّم أنّ إحياء بدن الإنسان الميّت لا يشكّل بالنسبة له أدنى صعوبة.

وإذا خطونا خطوة أبعد من هذا التّفسير فسوف نصل إلى تفسير أدقّ وهو: أنّ خاصيّة توليد النار بواسطة خشب الأشجار، لا تنحصر بخشب شجرتي المرخ والعفار، بل إنّ هذه الخاصية موجودة في جميع الأشجار وجميع الأجسام الموجودة في هذا العالم وإن كان لشجرتي المرخ والعفار -لتوفّر خصائص فيها- استعداد أكثر من غيرهما على هذا الأمر.

خلاصة القول: إنّ جميع خشب الأشجار إذا حكّ ببعضه بشكل متواصل فإنّه سيطلق شرر النار وحتّى خشب الشجر الأخضر.

لهذا السبب تقع في بعض الأحيان حرائق هائلة في بعض الغابات المليئة بالأشجار، لا يعرف لها سبب من قبل الإنسان، إلّا أنّ هبوب الريح الشديدة التي تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدّة ممّا يؤدّي إلى انقداح شرر منها يؤدّي إلى اشتعال النار فيها، وتساعد الريح الشديدة على سرعة انتشارها، فالعامل الأصلي كان تلك الشرارة الناتجة عن الاحتكاك.

هذا التّفسير الأوسع، هو الذي يوضّح عملية جمع الأضداد في الخلق. ويبسط مفهوم وجود البقاء في الفناء وبالعكس.

لكن ثمّة تفسير ثالث يعتبر أعمق بكثير من التّفسيرين السابقين. والذي ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء في عصرنا الحاضر وقد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «**انبعاث الطاقة**».

وتوضيح ذلك كما يلي: إنّ من أهمّ الوظائف التي تقوم بها النباتات هي عملية «**التركيب الضوئي**» والتي تعتمد أساسا على أخذ غاز «**ثاني اوكسيد الكربون**» من الهواء، والإفادة منه بواسطة «**المادّة الخضراء**» أو ما يسمّى «**بالكلورفيل**» لصنع الغذاء بمساعدة

الماء وضوء الشمس. ذلك الغذاء الذي يؤدّي إلى تكوّن حلقات السليلوز في النباتات من ذوات الفلقتين، ويكون ناتج عملية التركيب الضوئي الأوكسجين الذي يطلق في الهواء مرّة أخرى.

ولو نظرنا إلى العملية بطريقة أخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز «**ثاني أوكسيد الكاربون**» وتجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركّبا مع غيره من الماء لتكوّن الخشب وتطلق الأوكسجين.

والمهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأن أيّة عملية تركيب كيمياوي تحتاج إلى طاقة ما لكي يتمّ ذلك التفاعل الكيمياوي، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّي إلى إطلاق طاقة كناتج عنه. وبناء عليه، فإنّ التفاعل الذي يتمّ نتيجة التركيب الضوئي إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل.

وعليه، فالشجرة إنّما تقوم بادّخار هذه الطاقة في الخشب الذي يتكوّن نتيجة لهذه العملية. وعندما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدّخرة. وبذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب «**الكاربون**» مع «**الأوكسجين**» لينتج «**ثاني أوكسيد الكاربون**» الذي ينطلق في الهواء مرّة أخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

ولو تحدّثنا بلغة أخرى لقلنا: إنّ تلك الحرارة الناجمة عن اشتعال الحطب في المواقد البيتية القروية أو مواقد الفحم التي نستعملها في بيوتنا أحياناً للتدفئة في فصل الشتاء، هي في الحقيقة حرارة ونور الشمس التي ادّخرت في خشب هذه الأشجار لسنوات، وما جمعته الشجرة على مدى عمرها من الشمس تعيده دفعة واحدة بدون نقص.

ويقال إنّ كلّ الطاقات في الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساساً، وواحد من مظاهره ما ذكرنا.

وهنا وحيث بلغنا «**انبعاث الطاقات**» نلاحظ أنّ النور والحرارة المبعثرة في الجو والتي تقوم الأشجار بجمعها في أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنى أبداً، بل إنّها تتبدّل شكلاً. وتختفي بعيداً عن أعيننا في كلّ ذرّة من ذرّات الخشب، وعندما نقوم بإيقاد النار بقطعة من

الحطب، فإنّ انبعاثها يبدأ، وجميع ما كان في ذرّات الخشب من النور والحرارة وطاقة الشمس، في تلك اللحظة -لحظة الحشر والنشر- تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتّى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمّل بدقّة!).

لا شكّ أنّ هذا المعنى كان خافياً على عوام الناس حين نزول الآية، ولكن -كما قلنا- فإنّ هذا الموضوع لا يشكّل أدنى مشكلة، لأنّ آيات القرآن لها معان متعدّدة وعلى مستويات مختلفة، لاستعدادات متفاوتة، ففي يوم يفهم من الآية معنى، واليوم يفهم منها معنى أوسع، ويمكن أنّ الأجيال القادمة تفهم منها معنى أوسع وأعمق، وفي نفس الوقت فكلّ هذه المعاني صحيحة ومقبولة بشكل كامل ومجموعة كلّها في معنى الآية.

مسألتان

المسألة الأولى: شجر أخضر... لماذا؟

يرد على الذهن أنّه لماذا عبّر القرآن هنا بالشجر الأخضر؟ في حين أنّ توليد النار من الخشب الطري والرطب يتمّ بصعوبة بالغة، فكم كان جميلاً لو عبّر عوضاً عن ذلك «**بالشجر اليابس**»، لكي ينسجم مع المعنى تماماً!

النكتة هنا هو أنّ الشجر الأخضر الحي فقط يستطيع القيام بعملية التركيب الضوئي، وادّخار نور الشمس وحرارتها، وأمّا الجذوع اليابسة للشجر لو بقيت مئات السنين متعرّضة للشمس فإنّها لن تستطيع زيادة الذخيرة الموجودة فيها.

وبناء عليه، فإنّ الشجر الأخضر فقط يستطيع أن يصنع وقودا لنا، ويمكنه الاحتفاظ وادّخار الحرارة والنور وزيادتها بصورة محوّرة، ولكنّها بمحض جفافها، فإنّ عملية التركيب الضوئي تتوقّف، وتتعطّل معها عملية ادّخار الطاقة الشمسية.

وبناء على هذا، فإنّ التعبير أعلاه، يعتبر تجسيداً جميلاً لعملية «**انبعاث الطاقات**» ومعجزة علمية خالدة للقرآن الكريم!

فضلاً عن أنّنا إذا رجعنا إلى التّفسيرات الأخرى التي أشرنا إليها سابقاً، يبقى أيضاً التعبير بـ «**الشجر الأخضر**» جميلاً ومناسباً، إذ إنّ الأشجار الخضراء عند احتكاكها بعضها ببعض

تولّد شرارة تستطيع أن تكون مبعث نار كبيرة، وهنا نقف إزاء عظمة قدرة الله في حفظه النار في قلب الماء، والماء في قلب النار[1].

المسألة الثانية: الفرق بين الوقود والوقود

﴿تُوقِدُونَ﴾ من «**وقود**» -على زنة قبور- بمعنى اشتعال النار -و«**الإيقاد**» بمعنى إشعال النار، و«**الوقود**»- على زنة ثمود- بمعنى الحطب المعدّ للإحراق.

وعليه، فإنّ جملة ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ إشارة إلى الحطب الذي تشتعل فيه النار، لا ما تبدأ به النار بالاشتعال كالزناد أو عود الكبريت.

وبناء عليه، فإنّ القرآن الكريم يقول: «**إنّ اللّه سبحانه وتعالى جعل لكم من الشجر الأخضر حطباً توقدونه، وهو القادر على إعادة الموتى إلى الحياة**»، وهذا التعبير ينسجم تماماً مع ما قلناه من «**بعث الطاقات**» (تأمّل بدقّة!).

وعلى كلّ حال، فإنّ مسألة إشعال النار في خشب الأشجار مع أنّها مسألة بسيطة في نظرنا، ولكن بقليل من الدقّة نعلم أنّها من أعجب المسائل، لأنّ المواد التي يتشكّل منها خشب الأشجار في أغلبها ماء وتراب، وكلاهما غير قابل للاشتعال، فما هي تلك القدرة التي خلقت من الماء والتراب والهواء -وهي مواد- طاقة لا زالت حياة البشر ومنذ آلاف السنين مرتبطة بها بقوّة؟!

(1) إذا اعتبرنا «من» في جملة «منه توقدون» بمعنى «به» فإنّ ذلك يتساوق مع التّفسيرات الأخرى.

36 سُورَةُ يٰسٓ

الآيات 81 إلى 83

أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣

التّفسير

هو المالك والحاكم على كلّ شيء!

بعد ذكر دلائل المعاد والفات الأنظار إلى الخلق الأوّل، ونشوء النار من الشجر الأخضر في الآيات السابقة، تتابع الآية الأولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث وهو قدرة الله اللامتناهية، فتقول الآية الأولى: ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

الجملة الأولى بشروعها (بالاستفهام الإنكاري) تطرح سؤالاً على الوجدان اليقظ والعقل السليم كالآتي: ألم تتطلّعوا إلى تلك السماء المترامية العظيمة بكلّ ثوابتها وسيّاراتها العجيبة، وبكلّ تلك المنظومات والمجرّات التي تشكّل كلّ زاوية منها دنيا واسعة هائلة؟ فالذي هو قادر على خلق كلّ هذه العوالم الخارقة في العظمة والمتناهية التنظيم والدقّة في قوانينها، كيف لا يكون قادرا على إحياء الموتى؟

ولكون الجواب على هذا السؤال واضحاً، وكامناً في كلّ قلب وروح، فإنّ الآية لا تنتظر الجواب، إنّما تردف مضيّفة ﴿بَلَىٰ﴾ وتتابع مؤكّدة على صفتين لله سبحانه وتعالى -الخالقية

والعلم المطلق- وذلك في حقيقته دليل على الكلام المتقدّم، فإذا كنتم تشكّون في قدرته على الخلق فهو ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ وهي صيغة مبالغة.

وإذا كان جمع هذه الذرّات يحتاج إلى علم أو معرفة فهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المطلق.

أمّا على ماذا يعود الضمير في ﴿مِثْلَهُمْ﴾ فقد احتمل المفسّرون احتمالات عديدة، ولكن أشهرها هو القول بعودة الضمير على «**البشر**»، والمعنى: إنّ خالق السماء والأرض قادر على خلق مثل البشر.

وهنا يأتي السؤال التالي وهو: لماذا لم يقل: قادر على أن يخلقهم من جديد، بل قال: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟

وللإجابة عن هذا السؤال ذكرت أجوبة كثيرة، يبدو أقربها: أنّ بدن الإنسان عندما يتحوّل -أو بالأحرى يتحلّل- إلى تراب، فإنّه يفقد الصورة النهائية التي كان عليها، وفي يوم القيامة عندما يعاد خلق هذا الإنسان من جديد، فإنّه سيخلق من نفس المواد ولكن بصورة جديدة تشبه الصورة القديمة، بلحاظ أنّ عودة نفس الصورة القديمة -بالأخصّ إذا أخذنا في الإعتبار قيد الزمن- غير ممكن، وخصوصاً إذا علمنا -مثلاً- أنّ الإنسان لا يحشر بجميع المواصفات والكيفية التي كان عليها سابقاً، فإنّ الشيبة والشيوخ -مثلاً- يحشرون شبّاناً، والمعلولين يحشرون سالمين، وهكذا.

وبتعبير آخر: إنّ بدن الإنسان كالطابوق الطيني غير المفخور -اللبن- الذي يمرّ عليه الزمان فيتهدّم ويصبح تراباً، ثمّ يجمع من جديد وتصنع منه خميرة الطين ويوضع في قالب مرّة أخرى ويصنع لبناً جديداً مرّة أخرى. فهذا «**اللبن**» هو من جانب نفس «**اللبن**» القديم ومن جانب آخر «**مثله**» «**مادّته هي نفس المادّة والصورة مثل الصورة السابقة**» (دقّق النظر)[1].

(1) بعض المفسّرين أعادوا الضمير في «مثلهم» على السموات والأرض، وقالوا بأنّ استعمال ضمير الجمع العاقل لوجود الموجودات العاقلة في الأرض والسماء كثير.
بعضهم الآخر استنتج من استخدام كلمة «مثلهم» عدم ضرورة عودة عين الجسم بمواده التي كان يتشكّل منها في الدنيا، لأنّ شخصية الإنسان تتعلّق بروحه، وهذه الروح بأي مادّة تعلّقت تكون مثل الإنسان.
ولكن يجب الالتفات إلى أنّ الكلام لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم -حتّى أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآيات مورد البحث- لأنّ القرآن الكريم يقول بصراحة في هذه الآيات: إنّه يخلق نفس تلك العظام المتفسّخة من جديد ويلبسها ثوب الحياة. (تأمّل!).

الآية اللاحقة تأكيد على ما ورد في الآيات السابقة، وتأكيد على حقيقة أنّ أي خلق وإيجاد بالنسبة لله سبحانه وتعالى وقدرته سهل وبسيط، وخلق السموات العظيمة والكرة الأرضية يعادل في سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هيّن بسيط، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فكلّ شيء مرتبط بأمره وإشارته فقط، وذات بهذه القدرة كيف يشكّ في تمكّنها في إحياء الموتى؟! وبديهي أنّ الأمر الإلهي هنا ليس أمرا لفظيا، كما أنّ جملة ﴿كُن﴾ ليست جملة يبيّنها الله سبحانه وتعالى بصورة لفظ، لأنّه تعالى لا يحتاج إلى تلك الألفاظ، بل المقصود هو مجرّد إرادته لإيجاد وإبداع شيء، وإنّما استخدم التعبير بـ ﴿كُن﴾ لأنّه ليس هناك تعبير أقصر وأصغر وأسرع يمكن تصوّره في التعبير عن تلك الحقيقة.

نعم، فإرادته لإيجاد شيء ووجود هذا الشيء هي عملية واحدة.

وبتعبير آخر: إنّ الله سبحانه وتعالى ما إن يرد شيئاً إلّا تحقّق فوراً، وليس بين إرادته ووجود ذلك الشيء أيّة فاصلة. وعليه، فإنّ ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾ و«**قوله**» وجملة ﴿كُن﴾ كلّها توضيح لمسألة الخلق والإيجاد. وكما ذكرنا فإنّ الأمر ليس لفظيّاً أو قولياً، بل كلّها توضيح للتحقّق السريع بوجود كلّ ما أراده سبحانه وتعالى.

وببيان أوضح: إنّ أفعال الله سبحانه وتعالى تمرّ بمرحلتين لا ثالث لهما، مرحلة الإرادة ومرحلة الإيجاد، وهي التي عبّرت عنه الآية بشكل أمر في جملة ﴿كُن﴾.

بعض المفسّرين القدماء توهّموا أنّ المعنى يشير إلى وجود قول ولفظ في عملية الإيجاد والخلق، واعتبروا ذلك من أسرار الخلق غير المعروفة، والظاهر أنّهم وقعوا في عقدة اللفظ، وبقوا بعيدين عن المعنى، وقاسوا أعمال الله على مقاييسهم البشرية.

وما أجمل ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واحدة من خطبة التي أوردت في نهج البلاغة: «**يقول لما أراد لما كونه ﴿كُن فَيَكُونُ﴾**[1] **لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، وإنّما كلامه**

(1) ورد في بعض النسخ «لمن أراد» ويبدو أن الأنسب هو النص الذي أوردناه «لما أراد».

سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان ثانياً»[1].

ناهيك عن أنّنا لو افترضنا وجود لفظ أو قول في عملية الخلق فسنواجه إشكالين أساسيين:

الأوّل: أنّ (اللفظ) بحدّ ذاته مخلوق من مخلوقات الله ولأجل إيجاده يحتاج سبحانه إلى ﴿كُن﴾ أخرى، ونفس الكلام ينطبق على ﴿كُن﴾ الثانية بحيث نصبح في عملية تسلسل غير منتهية.

الثاني: أنّ كلّ خطاب يحتاج إلى مخاطب، وفي الوقت الذي لم يوجد فيه شيء حينذاك فكيف يخاطبه الله سبحانه وتعالى بالقول ﴿كُن﴾، فهل أنّ المعدوم يمكن مخاطبته؟! وقد ورد في آيات أخرى من القرآن الكريم نفس هذا المعنى بتعبيرات أخرى، كما في الآية (117) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وكذا في الآية (40) من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3][4].

الآية الأخيرة من هذه الآيات وهي في ذات الوقت آخر آية من سورة «**يس**» تنهي البحث في مسألة المبدأ والمعاد بشكل جميل وبطريقة الاستنتاج الكلّي فتقول: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

ومع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ ﴿مَلَكُوتُ﴾ من أصل «**ملك**» -على وزن حكم- بمعنى الحكومة والمالكية، وإضافة (الواو) و(التاء) إليها للتأكيد والمبالغة، يتّضح أنّ معنى الآية كما يلي: إنّ الحاكمية والمالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقة، وكذلك فإنّ الله سبحانه منزّه ومبرّأ عن أي عجز أو نقص في القدرة، وبهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى وإلباس العظام المتفسّخة لباس الحياة من جديد، كلّ ذلك لن يشكّل لديه أيّة مشكلة، ولذلك فاعلموا يقيناً أنّكم إليه ترجعون وأنّ المعاد حقّ.

(1) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الامام علي عليه السلام، خطبة 186.
(2) سورة البقرة، الآية 117.
(3) سورة النحل، الآية 40.
(4) هناك بحث آخر في تفسير جملة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ في تفسير الآية (117) من سورة البقرة.

لقد تقدّمت منّا الوعود بأن نتعرّض لبحث مركز في مسألة المعاد في ختام سورة (يس) وها نحن نفي بهذه الوعود ونشبع هذه المسألة بحثاً من خلال ستّة مباحث لنعرضها للقرّاء الأعزّاء كما يلي:

1. الإعتقاد بالمعاد أمر فطريّ

إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقاً للفناء، وأن يلتذّ بنهاية عمره وبموته في حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن ساراً للإنسان في أي وقت، وهو يفرّ منه بكلّ وجوده.

إنّ السعي لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، وبناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، والجري وراء ما يسمّى بماء الحياة ودواء الشباب وما يطيل العمر، كلّ ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى ولا فائدة.

لا تنسَوا أنّنا نتابع البحث في مسألة المعاد بعد الاتّفاق على الإعتقاد بوجود الله الحكيم العالم، ونحن نعتقد بأنّ كلّ ما خلقه الله سبحانه وتعالى في وجودنا إنّما هو وفقاً لحساب وغرض. وبناء عليه، فإنّ عشق البقاء لا بدّ من أن يكون له حساب خاصّ، منسجم مع الخلق والعالم بعد الدنيا.

وبتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشاً. فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجوداً في العالم الخارجي، كذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسية والميل إلى الجنس الآخر يدلّ على وجود الجنس الآخر في العالم الخارجي، وإلّا فإنّ الانجذاب بدون أن يكون له مدلول وموضوع خارجي لا يتّفق مع حكمة الخلق.

ومن جهة أخرى، فعندما نبحث في التأريخ البشري منذ أيّام نشأة ذلك التأريخ فإنّنا نجد دلائل كثيرة على الإعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت.

فالآثار التي وصلت إلينا من البشر الغابرين -وحتّى إنسان ما قبل التأريخ- وبالأخصّ طريقة دفن الموتى، وكيفية بناء القبور، وحتّى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلّها دليل على ما ترسّخ في وجدانهم من الإعتقاد بالحياة بعد الموت.

«**صاموئيل كنيك**» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «**إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الأولى على سطح الأرض، كانت لهم اعتقادات معيّنة، لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معيّنة في الأرض، ويضعون معهم وسائل وآلات أعمالهم التي كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، وبهذه الطريقة فإنّهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت**»[1].

فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، وإن كانوا قد سلكوا طريقاً خاطئاً في اعتقادهم كتوهّمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماماً.

على كلّ حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرّد وهم أو نتيجة للتلقين والعادة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ وجود محكمة الوجدان، دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد. فكلّ إنسان عندما ينجز عملاً حسناً فإنّه يستشعر في أعماقه وفي وجدانه الطمأنينة التي لا يمكن أحياناً وصفها بأي بيان أو كلام.

وعلى العكس، عندما يرتكب الذنوب وخصوصاً الجنايات الكبرى، فإنّه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحالة في بعضهم إلى الانتحار، أو يسلّموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب والتعلّق على أعواد المشانق.

كلّ ذلك دليل على عذاب الضمير والوجدان.

وللإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمة، ولا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان وهذه المحكمة؟! وبهذا الشكل يتّضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد والحياة بعد الموت أمر فطري، ومن عدّة طرق:

(1) علم الاجتماع (ساموئيل كنيك) ص192 (مع قليل من التلخيص).

من طريق العشق البشري العام للبقاء.

ومن طريق وجود ذلك الإعتقاد بالحياة بعد الموت على طول التأريخ البشري.

ومن طريق وجود النموذج المصغّر لها في داخل الإنسان.

2. أثر الاعتقاد بالمعاد على حياة البشر

إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت وبقاء آثار الأعمال البشرية، وخلود الأعمال -سواء كانت خيراً أو شرّاً- يترك أثره العميق على فكر وأعصاب وجسد الإنسان، ويمكنه أن يكون عاملاً مؤثّراً في التشجيع على الأعمال الحسنة.

إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت في إصلاح الأفراد الفاسدين والمنحرفين وتشجيع الأفراد المضحّين والمجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم والعقوبات المعمول بها عادة في الدنيا، للمزايا التي يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففي محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، ولا أثر للاضطهاد الفكري على صاحبها، ولا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة ومزوّرة، ولا تستغرق -عبر روتينها- مدّة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

كذلك يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2].

كذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[3].

وإنّ حسابه تعالى سريع وحاسم كما نقلت بعض الروايات: «**إنّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلّها في مقدار لمح البصر**»[4].

(1) سورة البقرة، الآية 48.

(2) سورة يونس، الآية 54.

(3) سورة إبراهيم، الآية 51.

(4) مجمع البيان، الطبرسي ج1، ص298، تفسير سورة البقرة، الآية 202.

ولهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء، فقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾[1].

حتّى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقداً بالقيامة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد في وصفه تعالى لمن يخسرون الميزان في البيع قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

والحماسة الخالدة لمجاهدي الإسلام سابقاً وحاضراً في ميادين الجهاد، والتضحية والفداء والإيثار الذي يظهره الكثير من المسلمين في الدفاع عن بلدان الإسلام وعن المحرومين والمستضعفين، يدلّل على أنه بجميعه انعكاس لحالة الإعتقاد بالحياة الخالدة في الدار الآخرة، وقد دلّت الدراسات من قبل المفكّرين، والتجارب المختلفة على أنّ تلك المظاهر لا يمكن أن تكون -في المقياس الواسع الشامل- إلّا عن طريق العقيدة بالحياة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذي منطقه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[3]؛ أي الوصول إلى إحدى السعادتين: إمّا النصر أو الشهادة، وهو قطعاً مجاهد لا يقبل الهزيمة.

إنّ الموت الذي يبعث على الوحشة لدى كثير من الناس، وحتّى أنّهم يحاذرون من ذكر اسمه أو كلّ ما يذكّر به، ليس موحشاً ولا قبيحاً قطّ بالنسبة إلى المعتقدين بالحياة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إليهم نافذة على عالم رحيب، وتحطّم القفص الدنيوي وكسر القيود المادّية التي تأسر الروح، وبلوغ الحريّة المطلقة.

إنّ مسألة المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بين الإلهيين والمادّيين، لوجود نظرتين مختلفتين هنا:

فالمادّي يرى الموت فناء مطلقاً، ويفرّ منه بكلّ وجوده، لأنّ كلّ شيء سينتهي به.

والإلهي يرى الموت ولادة جديدة، وولوجاً في عالم واسع كبير مشرق، والانطلاق في السماء اللامحدودة. ومن الطبيعي فإنّ المعتقدين بهذا المذهب لا يفسحون المجال

(1) سورة السجدة، الآية 14.
(2) سورة المطفّفين، الآية 4.
(3) سورة التوبة، الآية 52.

للخوف والوحشة للدخول إلى أنفسهم عند سلوكهم طريق الموت والشهادة، بل إنّهم يستلهمون من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**والله، لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه**»[1].

ويستقبلون الموت في سبيل الهدف برحابة صدر. ولهذا فإنّ أمير المؤمنين حينما تلقّى الضربة السامّة من اللعين الخاسر عبد الرحمن بن ملجم لم يقل سوى: «**فزت وربّ الكعبة**».

خلاصة القول: إنّ الإيمان بالمعاد يجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنساناً شجاعاً شهماً هادفاً، تمتلئ حياته بالحماسة والتضحية والصدق والتقوى.

3. الدلائل العقليّة على المعاد

فضلاً عن الدلائل النقلية الكثيرة على المعاد سواء الواردة في القرآن المجيد، والتي تشمل مئات الآيات بهذا الخصوص، فإنّ هناك أدلّة عقليّة واضحة أيضاً على هذه المسألة، والتي نحاول ذكرها هنا بشكل مختصر:

أ. برهان الحكمة

إذا نظرنا إلى هذا العالم بدون العالم الآخر، فسيكون فارغاً وبلا معنى تماماً، كما لو افترضنا بوجود الحياة في الأطوار الجنينية بدون الحياة في هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضي بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرّد نزولهم من بطون أمّهاتهم ويموتون، فإنّ الدور الجنيني سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة في هذا العالم مبتورة عن الحياة في العالم الآخر، فسنواجه نفس الاضطراب والحيرة، فما ضرورة أن نعيش سبعين عاماً أو أكثر أو أقل في هذه الدنيا وسط كلّ هذه المشكلات؟ فنبدأ الحياة ونحن لا نملك تجربة معيّنة، وحين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت وينتهي العمر... نسعى مدّة لتحصيل العلم والمعرفة، وحينما نبلغ درجة منه بعد اشتعال الرأس شيباً يستقبلنا الموت.

(1) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، الخطبة 5، ص52.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟ الأكل واللبس والنوم والاستيقاظ المتكرّر يومياً، واستمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهل حقّاً إنّ هذه السماء المترامية الأطراف وهذه الأرض الواسعة، وكلّ هذه المقدّمات والمؤخّرات وكلّ هؤلاء الأساتذة والمعلّمين والمربّين وكلّ هذه المكتبات الضخمة وكلّ هذه الأمور الدقيقة والأعمال التي تداخلت في خلقنا وخلق باقي الموجودات، كلّ ذلك لمجرّد الأكل والشرب واللبس والحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، ويقدم بعضهم على الانتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

وكيف يمكن لمن يؤمن بالله وبحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون ارتباطها بحياة أخرى ذات قيمة وذات شأن؟

يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]؛ أي إنّه لو لم يكن رجوع بعد هذه الدنيا إلى الله، فإنّ الحياة في هذه الدنيا ليست سوى عبث في عبث.

نعم، فإنّ الحياة في هذه الدنيا تجد معناها، ويكون لها مفهوماً ينسجم مع حكمة الله سبحانه وتعالى عندما تعتبر هذه «**الدنيا مزرعة للآخرة**»، و«**الدنيا قنطرة**» ومكان تعلّم، وجامعة للاستعداد للعالم الآخر ومتجر لذلك العالم، تماماً كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلماته العميقة المعنى: «**إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عاقبة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله**»[2].

خلاصة القول: إنّ الفحص والمطالعة في وضع هذا العالم يؤدّي إلى الاعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

(1) سورة المؤمنون، الآية 115.

(2) نهج البلاغة، الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، الكلمات القصار الكلمة 131.

(3) سورة الواقعة، الآية 62.

ب. برهان العدالة

التدقيق في نظام الوجود وقوانين الخلق، يستنتج منه أنّ كلّ شيء منها محسوب بدقّة متناهية. ففي مؤسسة البدن البشري، يحكم نظام عادل دقيق، بحيث إنّه لو تعرّض لأدنى تغيير أو عارض ما لأدّى إلى إصابته بالمرض أو حتّى الموت، حركات القلب، دوران الدم، أجفان العين، وكلّ جزء من خلايا الجسم البشري مشمول بهذا النظام الدقيق، الذي يحكم العالم بأسره «**وبالعدل قامت السموات والأرض**»[1]، فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النغمة النشاز في هذا العالم الواسع؟! صحيح أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان بعض الحرية في الإرادة والإختيار لكي يمتحنه ولكي يتكامل في ظلّ تلك الحرية ويطوي مسير تكامله بنفسه، ولكن إذا أساء الإنسان الاستفادة من تلك الحرية فماذا سيكون؟! ولو أنّ الظالمين الضالّين المضلّين بسوء استفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمرّوا على مسيرهم الخاطئ فما ذا يقتضي العدل الإلهي؟! وصحيح أنّ بعضاً من المسيئين يعاقبون في هذه الدنيا ويلقون مصير أعمالهم -على الأقل قسم منهم- ولكن المسلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ. كما أنّ جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيّبة في الدنيا، فهل من الممكن أن تكون كلا المجموعتين في كفّة عدالة الله سواء؟! ويقول القرآن الكريم: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[2]. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾[3]. على كلّ حال، فلا شكّ في تفاوت الناس وإطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، كما أنّ محاكم «**القصاص والثواب الدنيوية**» و«**محكمة الوجدان**» و«**الآثار الوضعية للذنوب**» كلّ ذلك لا يكفي لإقرار العدالة على ما يبدو. وعليه، يجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامّة تراعي بدقّة الخير أو الشرّ في حساباتها، وإلّا فإنّ أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبداً.

وبناء على ما تقدّم يجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهي مساو بالضرورة لوجود المعاد

(1) تفسير الصافي، ج5، ص107.
(2) سورة القلم، الآيتان 35 و36.
(3) سورة ص، الآية 28.

والقيامة، القرآن الكريم يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1]. ويقول: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2].

ج. برهان الهدف

على خلاف ما يتوهّمه المادّيون، فإنّ الإلهيين يرون أنّ هناك هدفاً من خلق الإنسان، والذي يعبّر عنه الفلاسفة بـ «**التكامل**» وفي لسان القرآن والحديث فهو «**القرب إلى الله**» أو «**العبادة**» ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[3]. فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكلّ شيء؟!

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم ويستمرّ فيه سير الإنسان التكاملي، وهناك يحصد ما زرع في هذا العالم، وكما قلنا في موضع آخر فإنّه في ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملي ليبلغ هدفه النهائي.

الخلاصة: إنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، وإذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم وعالم ما بعد الموت، فكلّ شيء سيتحوّل إلى ألغاز، وسوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

د. برهان نفي الاختلاف

لا شكّ أنّنا جميعاً نتعذّب كثيراً من الاختلافات بين المذاهب والعقائد في هذا العالم، وكلّنا نتمنّى أن تحلّ هذه الاختلافات، في حين أنّ جميع القرائن تدلّ على أنّ هذه الاختلافات هي من طبيعة الحياة. ويستفاد من عدّة دلائل بأنّه حتّى بعد قيام المهدي عليه السلام-وهو المقيم لحكومة العدل العالمية والمزيل لكثير من الاختلافات- ستبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تامّ، وكما يقول القرآن الكريم فإنّ اليهود والنصارى سيبقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[4]. ولكن الله

(1) سورة الأنبياء، الآية 47.
(2) سورة يونس، الآية 54.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.
(4) سورة المائدة، الآية 14.

سبحانه وتعالى الذي يقود كلّ شيء باتّجاه الوحدة سينهي تلك الاختلافات حتماً، ولوجود الحجب الكثيفة لعالم المادّة في الدنيا فإنّه لا يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، ونعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور والانكشاف، إذاً فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، وستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائي تامّ.

الجميل أنّه تمّ التأكيد في آيات متعدّدة من القرآن الكريم على هذه المسألة، يقول تعالى في الآية (113) من سورة البقرة: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1]، وفي الآيات (38) و(39) من سورة النحل يقول تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾[2].

4. القرآن ومسألة المعاد

تعتبر مسألة المعاد المسألة الثانية بعد مسألة التوحيد والتي تعتبر المسألة الأساس في تعليمات الأنبياء بخصائصها وآثارها التربوية، لذا ففي بحوث القرآن الكريم نجد أنّ أكثر الآيات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الكثرة الكاثرة التي اختصّت ببحث مسألة التوحيد.

والمباحث القرآنية حول المعاد تارة تكون بشكل استدلالات منطقية، وأخرى بشكل بحوث خطابية وتلقينية شديدة الوقع بحيث إنّ سماعها في بعض الأحيان يؤدّي إلى قشعريرة شديدة في البدن بأسره. والكلام الصادق -كالاستدلالات المنطقية- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانية.

في القسم الأوّل، أي الاستدلالات المنطقية، فإنّ القرآن الكريم يؤكّد كثيراً على موضوع إمكانية المعاد، إذ إنّ منكري المعاد غالباً ما يتوهّمون استحالته، ويعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصورة معاد جسماني يستلزم عودة الأجسام المهترئة والتراب إلى الحياة مرّة أخرى.

(1) سورة البقرة، الآية 113.

(2) سورة النحل، الآيتان 38-39.

ففي هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقاً متنوعة ومتفاوتة تلتقي كلّها في نقطة واحدة، وهي مسألة «**الإمكان العقلي للمعاد**».

فتارة يجسّد للإنسان النشأة الأولى، وبعبارة وجيزة ومعبّرة واضحة تقول الآية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1].

وتارة يجسّد حياة وموت النبات، وبعثه الذي نراه بأمّ أعيننا كلّ عام، وفي الختام يقول إنّ بعثكم تماماً كالنبات: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[2]. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[3]. وحيناً يطرح مسألة قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق السموات والأرض فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]. وحيناً آخر يعرض عملية انبعاث الطاقة واشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، وجعل النار في قلب الماء فيقول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾[5]. وتارة يجسّد أمام ناظري الإنسان الحياة الجنينية فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[6]. وأخيراً فإنّ القرآن تارة يدلّل على البعث بالنوم الطويل -النوم الذي هو قرين الموت وأخوه، بل إنّه الموت بعينه من بعض الجوانب- كنوم أصحاب الكهف الذي استمر ثلاثمئة وتسع سنين، وبعد تفصيل جميل حول النوم واليقظة يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

(1) سورة الأعراف، الآية 29.
(2) سورة ق، الآيات 9- 11.
(3) سورة فاطر، الآية 9.
(4) سورة الأحقاف، الآية 33.
(5) سورة يس، الآية 80.
(6) سورة الحجّ، الآية 5.

ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ﴾[1]. تلك هي الأساليب الستّة المختلفة التي طرحتها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانية المعاد. علاوة على قصّة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة[2]، وقصّة عزير[3]، وقصّة الشهادة من بني إسرائيل[4]، والتي تشكّل كلّ واحدة منها نموذجاً تأريخياً على هذه المسألة وهي من الشواهد والدلائل الأخرى التي ذكرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصة القول: إنّ ما يعرضه القرآن الكريم عن المعاد ومظاهره المختلفة ومعلوماته ونتائجه، والدلائل الرفيعة التي يطرحها بهذا الخصوص، حيّة ومقنعة بحيث إنّ أيّ إنسان إذا كان لديه ذرّة من الوجدان فإنّه يتأثّر بعمق ما يطرحه القرآن الكريم.

وعلى قول بعضهم: إنّ ألفاً ومئتي آية من القرآن الكريم تبحث في مسألة المعاد، لو جمعت وفسّرت لأصبحت وحدها كتاباً ضخماً.

5. المعاد الجسماني

المقصود من المعاد الجسماني ليس إعادة الجسم وحده في العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح والجسم معاً، وبتعبير آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، والحديث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون بالمعاد الروحي فقط، وينظرون إلى الجسد على أنّه مركّب، يكون مع الإنسان في هذه الدنيا فقط، وبعد الموت يصبح الإنسان غير محتاج إليه فينزل الجسد ويندفع نحو عالم الأرواح.

ولكنّ العلماء المسلمين الكبار يعتقدون بأنّ المعاد يشمل الروح والجسم، وهنا لا يقيّد بعضهم بعودة الجسم السابق، ويقولون بأنّ الله قيّض للروح جسداً، ولكنّ شخصيّة الإنسان بروحه، فإنّ هذا الجسد يعدّ جسده.

(1) سورة الكهف، الآية 21.
(2) سورة البقرة، الآية 260.
(3) سورة البقرة، الآية 259.
(4) سورة البقرة، الآية 73.

في حال أنّ المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا الجسد الذي يصبح تراباً ويتلاشى، يتلبّس بالحياة مرّة أخرى بأمر الله الذي يجمعه ويكسوه بالحياة، هذه العقيدة نابعة من متون الآيات القرآنية الكريمة.

إنّ الشواهد على المعاد الجسماني في الآيات القرآنية الكريمة كثيرة جدّاً، بحيث يمكن القول قطعاً بأنّ الذين يعتقدون باقتصار المعاد على المعاد الروحي فقط لا يملكون أدنى اطّلاع على الآيات العديدة التي تبحث في موضوع المعاد، وإلّا فإنّ جسمانية المعاد واضحة في الآيات القرآنية إلى درجة تنفي أدنى شكّ في هذه المسألة.

فهذه الآيات التي قرأناها في آخر سورة يس، توضّح هذه الحقيقة حيث حينما تساءل الإنسان: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ أجابه القرآن بصراحة ووضوح: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾.

إنّ كلّ تعجّب المشركين والمخالفين لمسألة المعاد هو هذه القضيّة، وهي كيف يمكن إحياؤنا بعد الموت وبعد أن نصبح تراباً متناثراً وضائعاً في هذه الأرض؟

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾[1]. إنّهم يقولون: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾[2].

و تعجّبوا من هذه المسألة إلى درجة أنّهم اعتبروا إظهارها دليلاً على الجنون أو الكذب على الله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾[3]. لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الكريم حول إمكانية المعاد عموماً تدور حول هذا المحور وهو المعاد الجسماني وما عرضناه في الفصل السابق في ستّة طرق كانت دليلاً وشاهداً على هذا الادّعاء.

علاوة على أنّ القرآن الكريم يذكر مراراً وتكراراً بأنّكم ستخرجون يوم القيامة من قبوركم والقبور مرتبطة بالمعاد الجسماني.

(1) سورة السجدة، الآية 10.
(2) سورة المؤمنون، الآية 35.
(3) سورة سبأ، الآية 7.

والأوصاف التي يذكرها القرآن الكريم عن المواهب المادية والمعنوية للجنّة، كلّها تدلّ على أنّ المعاد معاد جسمي ومعاد روحي أيضاً، وإلّا فلا معنى للحور والقصور وأنواع الأغذية والنعيم في الجنّة إلى جنب المواهب المعنوية.

على كلّ حال، فلا يمكن أن يكون الإنسان على جانب يسير من المنطق والثقافة القرآنية وينكر المعاد الجسماني. وبتعبير آخر: إنّ إنكار المعاد الجسماني بنظر القرآن الكريم مساوٍ لإنكار أصل المعاد.

علاوة على هذه الأدلّة النقلية، فإنّ هناك أدلّة عقلية بهذا الخصوص لو أردنا إيرادها لاتّسع البحث كثيراً، لا شكّ أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسماني سيثير أسئلة وإشكالات كثيرة، منها شبهة الآكل والمأكول والتي ردّ عليها العلماء الإسلاميون، والتي أوردنا تفصيلاً عنها بشكل مختصر في المجلّد الثاني عند تفسير الآية (260) من سورة البقرة.

6. الجنّة والنار

الكثيرون يتوهّمون بأنّ عالم ما بعد الموت يشبه هذا العالم تماماً ولكنّه بشكل أكمل وأجمل، غير أنّ لدينا قرائن عديدة تدلّ على الفروق الكبيرة بين العالمين من حيث الكيفية والكميّة، لو أردنا تشبيهها بالفروق بين العالم الجنيني وهذه الدنيا لظلّت المقايسة أيضاً غير كاملة.

فوفقاً لصريح الروايات الواردة في هذا الشأن فإنّ في عالم ما بعد الموت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على فكر بشر، القرآن الكريم يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]. الأنظمة الحاكمة في ذلك العالم أيضاً تتفاوت تماماً مع الأنظمة في هذا العالم، ففي حين يستفاد في هذا العالم من أفراد يسمّون «**الشهود**» في المحاكمات، نرى أنّ هناك تشهد الأيدي والأرجل وحتّى الجلد ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2]. ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3].

(1) سورة السجدة، الآية 17.
(2) سورة يس، الآية 65.
(3) سورة فصّلت، الآية 21.

على كلّ حال، فما قيل عن العالم الآخر لا يرسم أمامنا سوى صورة باهتة، وعادة فإنّ اللغة التي نتحدّث بها والثقافة التي لدينا غير قادرة جميعها على الوصف الحقيقي لما هو موجود هناك، ولكن لا يترك الميسور بالمعسور. فالمقدار المتيقّن هو أنّ الجنّة هي مركز كلّ النعم والمواهب الإلهية سواء المادية أو المعنوية، وجهنّم هي مركز لكلّ أنواع العذاب الأليم المادّي والمعنوي أيضاً.

أمّا بخصوص تفصيل ذلك فإنّ القرآن الكريم أورد جزئيات نحن نؤمن بها، ولكن تفصيلها بدقّة غير ممكن بدون الرؤية والمعاينة. ولنا بحث حول هذا الخصوص في تفسير الآية (33) من سورة آل عمران.

شرح دعاء العهد

اللّهُمَّ رَبَّ النُّورِ العَظِيمِ وَرَبَّ الكُرْسِيِّ الرَّفِيعِ وَرَبَّ البَحْرِ المَسْجُورِ وَمُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالإنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَرَبَّ الظِّلِّ وَالحَرُورِ وَمُنْزِلَ القُرْآنِ العَظِيمِ وَرَبَّ المَلائِكَةِ المُقَرَّبِينَ وَالأَنْبِياءِ وَالمُرْسَلِينَ، اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ وَبِنُورِ وَجْهِكَ المُنِيرِ وَمُلْكِكَ القَدِيمِ، يا حَيُّ يا قَيُّومُ أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ السَّماواتُ وَالاَرَضُونَ وَبِاسْمِكَ الَّذِي يَصْلَحُ بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ، يا حَيّاً قَبْلَ كُلِّ حَيٍّ وَيا حَيّاً بَعْدَ كُلِّ حَيٍّ وَيا حَيّاً حِينَ لاحَيَّ يا مُحْيِيَ المَوْتى وَمُمِيتَ الأَحْياءِ يا حَيُّ لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ، اللّهُمَّ بَلِّغْ مَوْلانا الإمام الهادِيَ المَهْدِيَّ القائِمَ بِأَمْرِكَ -صَلواتُ الله عَلَيْهِ وَعَلى آبائِهِ الطَّاهِرِينَ- عَنْ جَمِيعِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ فِي مَشارِقِ الاَرْضِ وَمَغارِبِها سَهْلِها وَجَبَلِها وَبَرِّها وَبَحْرِها وَعَنِّي وَعَنْ وَالِدَيَّ مِنَ الصَّلَواتِ زِنَةَ عَرْشِ الله وَمِدادَ كَلِماتِهِ وَما أَحْصاهُ عِلْمُهُ وَأَحاطَ بِهِ كِتابُهُ، اللّهُمَّ إِنِّي

أُجَدِّدُ لَهُ فِي صَبيحةِ يَوْمِي هذا وَما عِشْتُ مِنْ أيّامِي عَهْداً وَعَقْداً وَبَيْعَةً لَهُ فِي عُنُقِي لا أَحُولُ عَنْها وَلا أَزُولُ أَبَداً، اللّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أَنْصارِهِ وَأَعْوانِهِ وَالذَّابِّينَ عَنْهُ وَالمُسارِعِينَ إِلَيْهِ فِي قَضاءِ حَوائِجِهِ وَالمُمْتَثِلِينَ لأَوامِرِهِ وَالمُحامِينَ عَنْهُ وَالسَّابِقِينَ إِلى إِرادَتِهِ وَالمُسْتَشْهَدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، اللّهُمَّ إِنْ حالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ المَوْتُ الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلى عِبادِكَ حَتْماً مَقْضِيّاً فَأَخْرِجْنِي مِنْ قَبْرِي مُؤْتَزِراً كَفَنِي شاهِراً سَيْفِي مُجَرِّداً قَناتِي مُلَبِّياً دَعْوَةَ الدَّاعِي فِي الحاضِرِ وَالبادِي، اللّهُمَّ أَرِنِي الطَّلْعَةَ الرَّشِيدَةَ وَالغُرَّةَ الحَمِيدَةَ وَاكْحُلْ ناظِرِي بِنَظْرَةٍ مِنِّي إِلَيْهِ وَعَجِّلْ فَرَجَهُ وَسَهِّلْ مَخْرَجَهُ وَأَوْسِعْ مَنْهَجَهُ وَاسْلُكْ بِي مَحَجَّتَهُ وَأَنْفِذْ أَمْرَهُ وَاشْدُدْ أَزْرَهُ، وَاعْمُرِ اللّهُمَّ بِهِ بِلادَكَ وَأَحْيِ بِهِ عِبادَكَ فَإِنَّكَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الحَقُّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فَأَظْهِرِ اللّهُمَّ لَنا وَلِيَّكَ وَابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكَ المُسَمّى بِاسْمِ رَسُولِكَ حَتّى لا يَظْفَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الباطِلِ إِلّا مَزَّقَهُ وَيَحِقَّ الحَقَّ وَيُحَقِّقَهُ، وَاجْعَلْهُ اللّهُمَّ مَفْزَعاً لِمَظْلُومِ عِبادِكَ وَناصِراً لِمَنْ لا يَجِدُ لَهُ ناصِراً غَيْرَكَ وَمُجَدِّداً لِما عُطِّلَ مِنْ أَحْكامِ كِتابِكَ وَمُشَيِّداً لِما وَرَدَ مِنْ أَعْلامِ دِينِكَ وَسُنَنِ نَبِيِّكَ ﷺ، وَاجْعَلْهُ اللّهُمَّ مِمَّنْ حَصَّنْتَهُ مِنْ بَأْسِ المُعْتَدِينَ، اللّهُمَّ وَسُرَّ نَبِيَّكَ مُحَمَّداً ﷺ بِرُؤْيَتِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ عَلى دَعْوَتِهِ وَارْحَمِ اسْتِكانَتَنا بَعْدَهُ، اللّهُمَّ اكْشِفْ هذِهِ الغُمَّةَ عَنْ هذِهِ الأُمَّةِ بِحُضُورِهِ وَعَجِّلْ لَنا ظُهُورَهُ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ.

ثمّ تضرب على فخذك الأيمن بيدك ثلاث مرّات، وتقول كلّ مرّة: العَجَلَ العَجَلَ يا مَوْلايَ يا صاحِبَ الزَّمانِ.

شرح المفردات

اللهمّ: صيغة نداء ودعاء، مثل: يا الله.

ربّ: الربّ: هو الله عزّ وجلّ، هو ربّ كلّ شيء؛ أي مالكه. والربّ: المالك والمدبّر.

النور: النور معروف، وهو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا، فالأشياء ظاهرة به، وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته، فهو الظاهر بذاته المظهِر لغيره من المحسوسات بالبصر.

الكرسيّ: معروف، وربّما كُنِّي بالكرسيّ عن المُلك، فيُقال: كرسيّ المُلك، ويُراد منطقة نفوذه ومتّسع قدرته.

والمراد بالكرسيّ إحاطة مقام السلطنة الإلهيّة، فيتعيّن للكرسيّ من المعنى: أنّه المقام الربوبيّ الذي يقوم به ما في السماوات والأرض، من حيث إنّها مملوكة مدبّرة معلومة، فهو من مراتب العلم.

عن حفص بن غياث، قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، قال: «**علمه**»[1].

الرفيع: الشريف، إشارة إلى اعتِلاءِ مكانِه، وإلى ما خُصَّ به من الفَضيلةِ وشرَفِ المَنزِلة.

المسجور: سجّرت التنور، إذا أحميته. المسجورُ بالنار؛ أَي مملوء.

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، ص 327.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾[1]: أي سُعّرت، وقد ورد في الحديث أنّ البحار تسعر ناراً يوم القيامة، وقيل: المراد أنّها تغيض مياهها بتسجير النار فيها.

الزبور: الكتاب. والزبور: اسم الكتاب الذي أُنزل على داوود عليه السلام.

الظلّ: معروف، وبعضهم يجعل الظِّلَّ الفَيْء، قيل: كلُّ موضع يكون فيه الشمس فتزول عنه، فهو ظِلٌّ وفَيْء.

الحُرورو: الحرّ ضد البرد، والجمع حرور (بالضمّ).

الملائكة المقرّبين: ليس المراد من قوله (المقرّبين) الإخبار عن قرب المكان؛ لاستحالة ذلك عليه سبحانه، وإنّما المراد قرب المنزلة في الثواب وعظمها، ووصفهم بذلك يدلّ على التعظيم.

الأنبياء والمرسلين: الفرق بين الرسول والنبيّ، أنّ الرسول هو المبعوث من الله بكتاب، والنبيّ هو المبعوث من الله، وإن لم يكن معه كتاب.

فالنبيّ هو الذي يبيّن للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم، والرسول هو الحامل لرسالة خاصّة مشتملة على إمام حجّة، يستتبع مخالفته هلاكةً أو عذاباً.

عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، ما الرسول وما النبيّ؟ قال: «**النبيّ الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعُاين المَلَك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين المَلَك...**»[2].

الاسم: الاسم هو الدالّ على الذات مأخوذة بوصف [حال اتّصافها بوصف]. فالحياة والعلم صفتان، والحيّ والعالم اسمان. وإذ كان اللفظ لا شأن له إلّا الدلالة على المعنى وانكشافه به، فحقيقة الصفة والاسم هو الذي يكشف عنه لفظ الصفة والاسم، فحقيقة الحياة المدلول عليها بلفظ الحياة هي الصفة الإلهيّة، وهي عين الذات، وحقيقة الذات

(1) سورة التكوير، الآية 6.

(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، ج1، ص 176.

بحياتها التي هي عينها هو الاسم الإلهيّ.

الكريم: الجامع لأَنواع الخير والشرَف والفضائل. والكَريم: اسم جامع لكل ما يُحْمَد.

وجهك المنير: وجه الشيء هو ما يواجهك ويستقبلك به، ووجهه تعالى بالنسبة إلى عبده الذي أمَره بشيء وأراده منه هو رضاؤه عن فعله وامتثاله، فإنّ الآمر يستقبل المأمور أوّلاً بالأمر، فإذا امتثل استقبله بالرضاء عنه، فمرضاة الله عن العبد المكلّف بتكليف هو وجهه إليه، فابتغاء مرضاة الله هو إرادة وجهه عزّ وجلّ.

والمنير: هو كونه بحيث يُهتدى به الناس إلى سعادتهم، وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة.

ملكك القديم: ملك الله سبحانه ملك حقيقيّ (وليس ملكاً اعتباريّاً) ناشئ عن إحاطته القيوميّة بجميع الموجودات (والقيام هو حفظ الشيء وفعله وتدبيره وتربيته والمراقبة عليه والقدرة عليه).

القديم: القدم، وهو عدم كون وجود الشيء مسبوقاً بعدم زمانيّ.

الحيّ: اسم الحيّ، فمعناه ذو الحياة الثابتة.

القيّوم: اسم القيّوم وصف يدلّ على المبالغة. والقيام هو حفظ الشيء وفعله وتدبيره وتربيته والمراقبة عليه والقدرة عليه.

أشرقت به: إشراق الشيء هو ظهوره بالنور، ولا ريب أن مظهرها هو الله سبحانه، فالأشياء مشرقة وظاهرة بنور مكتسَب منه تعالى.

والمراد من إشراق الأرض بنور ربّها ما هو خاصّةُ يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبُدوّ الأعمال من خير أو شر أو طاعة أو معصية أو حقّ أو باطل للناظرين.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربّها...»[1].

يصلح: الصلاح ضدّ الفساد، ويَصْلَحُ ويَصْلُح: يصير صالحاً.

محيي الموتى: قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ومميت الأحياء: قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْۦِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

لا إله إلّا أنت: لا إله إلّا الله: شعار التوحيد وهُويّة الإسلام.

الهادي: الهدى ضدّ الضلال، والهادي إلى الله هو الذي يعرّفهم الطريق إلى الله.

المهديّ: الإناء الذي يُهدى فيه، ولا يسمّى الطبق مهديّاً إلّا وفيه ما يُهدى. فيكون المراد بالمهديّ: ما فيه الهداية.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا قام القائم دعا الناس إلى الإسلام جديداً، وهداهم إلى أمر قد دُثِر فضلّ عنه الجمهور، وإنّما سُمّي القائم مهديّاً لأنّه يهدي إلى أمر مضلول عنه، وسُمّي بالقائم لقيامه بالحقّ»[4].

مشارق الأرض ومغاربها: المراد مشارق الشمس ومغاربها، فإنّ لها في كلّ يوم من أيام السنة الشمسيّة مشرقاً ومغرباً، لا يعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة.

عرش الله: هو ملك الله وعلمه المحيط بكلّ شيء.

مداد كلماته: مداد كلماته من المدّ، والمعنى على قدر كثرتها وعددها.

ومن المعلوم أنّه تعالى لا يتكلّم بشقّ الفم، وإنّما قوله فعله وما يفيضه من وجود، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

---

(1) الشيخ الطوسّي، الغيبة، ص 468.
(2) سورة الأحقاف، الآية 33.
(3) سورة الحديد، الآية 2.
(4) الفيض الكاشاني، الوافي، ج2، ص 469.
(5) سورة النحل، الآية 40.

أحصاه علمه: والإِحْصاءُ: العَدُّ والحِفْظ.

وأَحْصَى الشيءَ: أَحاطَ به. وفي التنزيل: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾؛ أي أَحاط علمه سبحانه باستيفاء عدد كلِّ شيء.

أحاط به كتابُك: أحاط به: أي عَلِمَه. وكلّ من أحرز شيئاً كلّه، وبلغ علمه أقصاه، فقد أحاط به.

قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

والكتاب المبين هو المشتمل على علمه تعالى بالأشياء علماً لا سبيل للضلال والنسيان إليه، وما من شيء ممّا خلقه الله إلّا والكتاب المبين يحصيه قبل وجوده وعنده وبعده.

عهداً: العَهْدُ: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمّي الموثق (الميثاق) الذي يلزم مراعاته عَهْداً.

عقداً: العَقْدُ: الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل وعقد البناء، ثمّ يستعار ذلك للمعاني، نحو: عَقْدِ البيع، ثم استُعْمِل في التصميم والاعتقادِ الجَازِم.

بيعة: بَايَعَ السلطان: إذا تضمّن بذل الطاعة له بما رضخ له، ويقال لذلك: بَيْعَة ومُبَايَعَة.

أَحُول: أصل الحَوْل تغيّر الشيء وانفصاله عن غيره. والتحوّل: التنقّل من موضع إلى موضع. ومعنى لا أحول عنها؛ أي لا أترك بيعتَه.

أزول: زَالَ الشيء: فارق طريقته جانحاً عنه. والزَّوَال: الذَّهاب والاسْتِحالة والاضْمِحْلال.

أنصاره: النصر: عون المظلوم، والنصرة: حسن المعونة.

الذابّين: الذبّ: المنع والدفع؛ والمعنى: المدافعين.

(1) سورة سبأ، الآية 3.

حال بيني وبينه: فصل بيني وبينه.

مؤتزراً: أصل الأزر، والإزار الذي هو اللباس، يقال: إزار ومِئْزَر. مؤتزراً كفني: لابساً كفني.

مجرِّداً قناتي: جرّد السيف من غمده: سلّه. والقناة: الرمح.

الحاضر والبادي: الحضر: خلاف البدو. والحاضر: المقيم في القرى والمدن. والبادي: المقيم في البادية.

الغرّة: غُرّةُ الرجل: وجهُه، وقيل: طلعته ووجهه. وكلّ شيء بدا لك من ضوء أَو صُبْح، فقد بدت لك غُرّته.

واكحل ناظري: الناظر العين.

منهجه: نهج: طريقٌ، نَهْجٌ بَيِّنٌ: واضِحٌ، ومَنْهَجُ الطريقِ: وضَحُه. وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ، وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً؛ والمِنهاجُ: الطريقُ الواضِحُ.

محجته: المَحَجَّةُ: الطريق، وقيل: جادَّةُ الطريق (مسلكه وما وضح منه). سُمّيت حُجَّة لأَنها تُحَجُّ؛ أَي تقتصد؛ لأَنّ القصد لها وإِليها، وكذلك مَحَجَّة الطريق هي المَقْصِدُ والمَسْلَكُ.

واشدد أزره: الأزر: القوّة، وقوله تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾؛ أي ظهري، واشدد أزره: أي اشدد ظهره وأعطِه القوّة.

يظفر: الظفر: الفوز بما طالبت. ظفر به؛ أي وجده وحصل عليه.

ومفزعاً: المفزع: الملجأ.

ومشيّداً: تشييد البناء: إحكامه ورفعه.

حصّنته: منعتهم من الوصول إليه.

استكانتنا: استَكَانَ: خضع وضعف.

الغمّة: الكربة والحزن.

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

مِنْ مؤسّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ الثقافيَّةِ، متخصِّص بالتحقيق العلميِّ وتأليفِ المتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وفقَ المنهجيَّةِ العلميَّةِ والرؤيةِ الإسلاميَّةِ الأصيلةِ.

ISBN: 978-614-467-160-3

9 786144 671603

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb

جمعية مراكز الإمام الخميني الثقافية